رسائل شوق وحنين
(١)

# رسائل إلى الله

## أربعون رسالة في الشوق للجمال الإلهي

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

## هذا الكتاب

تحاول هذه الرسائل الموجهة للحضـرة النورانيـة المقدســة أن تلغي كــل الحجب والمســافات الــتي تربط بين العبد وربه.. لتصل العبد بربه مباشـرة عـبر مناجاته والحديث معـه وبثـه أشـواقه ومطالبـه، وفي جميع الشؤون.

وهي تختصر في مضامينها أكثر القضـايا العقديـة والعرفانية الواردة في المصادر المقدسـة أو الـتراث الإسلامي، وبصـياغة رقيقـة بعيـدة عن المصـطلحات الصــعبة، أو الجــدل، أو غيرهــا من الأســاليب الــتي اضطر الفلاسفة أو المتكلمون إليها.

وهي تحاول كـذلك أن تجـادل عن تلـك المعـاني السـامية، ولكن بطريقـة حسـنة بعيـدة عن الشـغب، والمراء الذي نهينا عنه.

فهي تخاطب العقل.. وتحاول أن تقنعه من خلال البـديهيات الـتي يسـلم لهـا.. ثم تنتقـل مباشـرة من العقـــل لتبث في القلب كـــل ألـــوان العواطـــف والمشاعر المرتبطة بتلك المعاني السامية.

رسائل شوق وحنين

(1)

# رسائل إلى الله

## أربعون رسالة في الشوق للجمال الإلهي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2019 ـ 1440

دار الأنوار للنشر والتوزيع

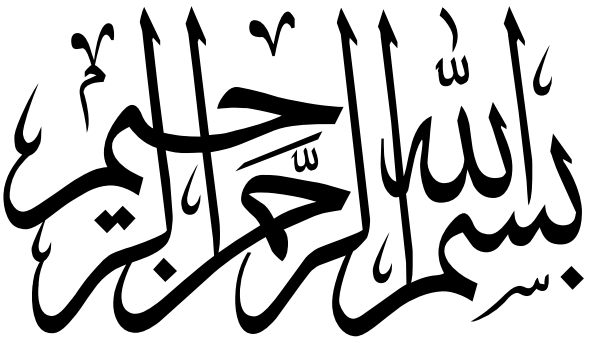
بسم الله الرحمن الرحيم

# فهرس المحتويات


| | |
|---|---|
| مقدمة السلسلة | 5 |
| مقدمة الكتاب | 8 |
| الظاهر والمظاهر | 10 |
| العزة المقدسة | 14 |
| التدبير الحكيم | 18 |
| النور الهادي | 23 |
| الخير الأعظم | 28 |
| الجمال المطلق | 35 |
| الخلاق البديع | 39 |
| الإرادة النافذة | 44 |
| قدس الأقداس | 49 |
| الغني الحميد | 53 |
| الحقائق والرموز | 58 |
| المبدئ المعيد | 64 |
| الحكم العدل | 68 |
| الواحد الأحد | 73 |
| اللطيف الخبير | 76 |
| الدال والدليل | 80 |
| القابض الباسط | 85 |
| الخافض الرافع | 89 |
| الجبار القهار | 93 |
| العفو الغفور | 97 |
| الوهاب الشكور | 101 |
| القريب المجيب | 104 |
| الحسيب الكافي | 108 |
| الطبيب الشافي | 112 |
| المولى النصير | 115 |
| المعطي المانع | 120 |
| الكبير المتعال | 124 |
| الصمد الودود | 128 |
| الأول والآخر | 132 |
| الظاهر والباطن | 135 |

| | |
|---|---|
| رب العالمين | 139 |
| السميع البصير | 143 |
| الآمر الناهي | 147 |
| المحيي المميت | 151 |
| الكلمات المقدسة | 157 |
| البارئ المصور | 160 |
| المغني المستغني | 164 |
| المؤمن المهيمن | 168 |
| مالك الملك | 172 |
| الرقيب الشهيد | 176 |

# مقدمة السلسلة

تحاول هذه السلسلة طرح القضايا العقدية وما يرتبط بها من المفاهيم والقيم وغيرها طرحا خاصا يمزج بين العاطفة والعقل.. ويحاول أن يقرب المسافة بين الحقائق والمستقبل لها حتى يصير قريبا منها ملامسا لها.. وحتى لا تبقى أمثال تلك القضايا المهمة نوعا من الفلسفة أو الأفكار الذهنية التي لا علاقة لها بالوجدان أو السلوك.

والدافع إلى تأليفها هو ما نراه من أن العقيدة تختلف عن العلم المجرد.. فالعلم معارف ذهنية قد لا يكون لها أي تأثير في الوجدان أو السلوك، بينما العقيدة تتجاوز ذلك كله، لتخاطب العقل والقلب والروح وكل اللطائف، ثم تتجاوزها جميعا إلى السلوك؛ فتؤثر فيه بكل أصناف التأثيرات.

ولذلك حاولنا في هذه السلسلة ـ عبر قضاياها المختلفة ـ أن نتجاوز الواسطة الذي يفرض مفاهيمه ومعارفه على المتلقي، وإنما جعلنا المتلقي نفسه مع القضايا نفسها من غير أي واسطة.

ففي هذه السلسة يخاطب القارئ ربه مباشرة.. وفي أثناء خطابه له يتلقى المعارف منه، ويرد على كل الشبه التي قد ترد على عقله.. ويستقبل كل المعاني السامية التي تهديه إليها معرفته.

وفيها يخاطب القارئ رسوله ﷺ .. ويحدثه كما يحدث الجليس جليسه.. لتنتفي بذلك الخطاب كل الوسائط.. و في ذلك الخطاب يتعلم الأدب في حواره مع رسول الله ﷺ .. ويتعلم القيم النبيلة التي جاء بها.. ليزداد محبة له، وتعظيما لحضرته.

وهكذا يخاطب القارئ في هذه السلسلة الإمام علي .. التلميذ الأكبر لرسول الله ﷺ .. والمظلوم الأعظم في هذه الأمة.. ليتعرف عليه، وعلى القيم النبيلة التي مثلها، بعيدا عن كل ألوان الجدل والخصومة.

وهكذا يخاطب القارئ في هذه السلسلة القرابة المظلومة من آل بيت النبوة، ويتعرف على فضلها وقيمها النبيلة، ومدى المظلومية التي لحقت بها، حتى يصحح علاقته

معها، وحتى يتمثل ما ورد في النصوص المقدسة من الوصية بها.

وهكـذا يخـاطب القـارئ في هـذه السلسـلة الصـحابة المنتجبين الذين حافظوا على هدي النبوة، ووفوا لهـا، وكـانوا نماذج رفيعة عن التلمذة الحقيقية لقيمها، حتى يمتلئ بحبهم، لا بحب المشوهين لهم، أو المتاجرين باسمهم.

وهكــذا يخــاطب القــارئ في هــذه السلســلة الأنبيــاء والمرسلين، ويملأ قلبه من محبتهم وتعظيمهم، ويتعرف على القيم النبيلة التي مثلوها، والتي حـاول المغرضـون تشـويهها، وتشويههم معها.

وهكــذا يخــاطب القــارئ في هــذه السلســلة الأئمــة المطهرين الذين ورثوا النبوة، ومثلوها أحسن تمثيل، فيتعرف على مقاماتهم الرفيعة، وأخلاقهم العالية، ويملأ قلبه بمحبتهم والشوق إليهم.

وهكـذا يخـاطب القـارئ في هـذه السلسـلة الملائكـة السـفرة الكـرام الـبررة، ويتلقى في ذلـك الخطـاب أنـواع المعرفة بفضلهم وكرامتهم ومكانتهم عند الله.. والقيم النبيلة التي مثلوها.. وليعقد الصحبة معهم في الدنيا قبل الآخرة.

وهكذا فإن هذه السلسلة ـ بأجزائهـا الثمانيـة ــ محاولـة لصياغة جديدة للقضـايا الإسـلامية المختلفـة بصـيغة عاطفيـة عقلية حتى يعيش القارئ المعاني العقدية، والقيم المرتبطــة بها، ولا تبقى مجرد معاني ذهنيـة لا أثـر لهـا على القلب.. ولا في السلوك والحياة.

وقد كان هادينا إليها ما تعلمنـاه من القـرآن الكـريم من تلك المناجيات وغيرها، والتي تصلنا بالله أو رسله أو ملائكتــه مباشرة، بعيدا عن كل أصناف الوسائط.

وهي ـ لذلك ــ تحتـاج إلى طريقـة خاصـة في القـراءة.. فهي أحيانا قد تضـع المعـاني الكثـيرة في كلمـات ومفـردات قليلـة، تحتـاج الكثـير من التـدبر والتأمـل والتفكـير، لـيرقى القارئ بها إلى ما تختزنه من المعاني السامية.

ذلك أنا قصدنا فيها الاختصار حتى يتيسر للقارئ الاطلاع عليها بكل يسر.. والاختصار يحتـاج إلى التأمـل والتـدبر حـتى يحيط بمعانيها، وقد ينـال في أثنـاء تـدبره لهـا مـا لم يقصـده كاتبها نفسه.

وأسأل الله أن يجعل هذه الرسائل شـفيعا لي ولقرائهـا الكرام يقربنا جميعا ممن أرسلتها لهم.. وأنا موقن تماما أنهـا وصلت لهم، وأنهم ـ بكرمهم وفضـلهم ــ أعظم من أن يـردوا من خاطبهم، أو خطب ودهم.

# مقدمة الكتاب

تحاول هذه الرسائل الموجهة للحضرة النورانية المقدسة أن تلغي كل الحجب والمسافات التي تربط بين العبد وربه.. لتصل العبد بربه مباشرة عبر مناجاته والحديث معه وبثه أشواقه ومطالبه، وفي جميع الشؤون.

وهي تختصر في مضامينها أكثر القضايا العقدية والعرفانية الواردة في المصادر المقدسة أو التراث الإسلامي، وبصياغة رقيقة بعيدة عن المصطلحات الصعبة، أو الجدل، أو غيرها من الأساليب التي اضطر الفلاسفة أو المتكلمون إليها.

وهي تحاول كذلك أن تجادل عن تلك المعاني السامية، ولكن بطريقة حسنة بعيدة عن الشغب، والمراء الذي نهينا عنه.

فهي تخاطب العقل.. وتحاول أن تقنعه من خلال البديهيات التي يسلم لها.. ثم تنتقل مباشرة من العقل لتبث في القلب كل ألوان العواطف والمشاعر المرتبطة بتلك المعاني السامية.

وهي تطرح الكثير مما ورد في النصوص المقدسة من أسماء الله الحسنى، وتتقرب إلى الله من خلالها.. فأسماء الله الحسنى هي مرائي التعرف على الله.. وهي معارج السير إليه.. وهي مراقي النفس لتصل إلى براءتها وطهارتها .. وتصل معهما إلى الطمأنينة التي ربطها الله بذكره ودعائه ومناجاته.. فعلامة صدق الذكر والدعاء والمناجاة حصول الطمأنينة.. كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد: 28]

ولذلك حاولت هذه الرسائل أن تبث كل معاني الطمأنينة المرتبطة بذكر الله.. وذلك عبر إشعار القارئ بالطمأنينة إلى الله، والثقة المطلقة فيه.. وأنه وحده صاحب الكمال المطلق، وصاحب الكرم المطلق.. ولذلك حاولت هذه الرسائل تعليم آداب العبودية.. فعلامة صدق الإيمان تحقق العبودية.

كمـا أنهـا حـاولت أن تربـط العقيـدة في اللـه بـالقيم الرفيعـة.. فيسـتحيل على من عـرف اللـه ألا يتحلى بمكـارم الأخلاق.. ولذلك مـزجت بين الإيمـان والأخلاق.. وربطت بين التحقق بمعرفة الله والتحقق بمكارم الأخلاق.

وقد كان دليلنا إليها، ومعلمنا فيها تلك الأدعية النورانيـة، والمناجيات الروحانية الواردة في القرآن الكريم.. ومثلها تلك التي رويت عن رسول اللـه ﷺ أو عن أهـل بيتـه الطـاهرين.. والذين تركوا لنا تراثا عظيما من الأدعيـة والمناجيـات يمكنـه أن يغنينـا عن كـل مـا سـطره المتكلمـون أو العرفـاء أو الفلاسفة في تلك الجوانب.

ولذلك كانت أسـوتنا بهم.. فهم أئمتنـا وأسـاتذتنا.. وكـل حرف سطرناه إنما هو نتيجة تشـرفنا بالتلمـذة عليهم، وعلى ذلك التراث النبيل الذي تركوه لنا، والـذي علمونـا من خلالـه كيف نخاطب ربنا، وكيف نمارس دورنا في العبودية معه.

# الظاهر والمظاهر

إلهي.. يا محتجبا بحجاب الغيب المطلق..
لقد رحت لكل شيء أسأله عنه، وعن سره، فدلني عليك..
أخبرتني الزهرة أنها وعطرها وجمالها لم تكن لولاك..
وأخبرتني أن الذي ذاب في حبها يكذب على نفسه، وعليها، لأنها ليست سوى نقطة من محيطات جمالك الذي لا حدود له.
وأخبرني الكرم والرحمة واللطف المتجلي في كل شيء بأنه منك بدأ، وإليك يعود، وأنه ليس سوى مظهر من مظاهر كمالك الذي تجلى في الأشياء، ولا وجود له لولاك.
وعندما سألت كل العاشقين عن سر عشقهم أخبروني أنهم تاهوا في تلك التقاسيم الجميلة، والأفواه العذبة، والعيون الحوراء، والابتسامات الآسرة..
وعندما رحت أسألها جميعا عنها وعن سرها أخبرتني أنها أشباح لولاك..
فأنت سر الجمال والبهاء المودع فيها، ولولاك لبقيت في عالم الظلمات المطبقة التي لا محل فيها لأي جمال ولا لأي بهاء، ولا لأي وجود.
وعندما رحت أسأل العلماء والفلاسفة عن سرهم أخبروني أنهم غرقوا في بحر الأسرار المودعة في عوالم الحس والمعاني..
وعندما تركتهم، ورحت أسألها عن سرها، وسر تعلق العلماء والفلاسفة بها أخبرتني أنهم لم يتعلقوا بها، وإنما تعلقوا بصاحبها الذي لا حدود لإبداعه، ولا قيود لكماله..
وأخبرتني أن سر حجابهم انشغالهم بالمظاهر عن الظاهر، وبالأشياء عن مشيئها، وبالصور عن مصورها، وبالكون عن مكونه.
فأسألك يا رب كما دللتني عليك بالمظاهر التي أظهرتها ألا تحجبني بها عنك، فإن أكثر الناس راحوا يتأملون فيها وفي جمالها، وبدل أن يرحلوا منها إليك، سجنوا أنفسهم في سجونها، ونسوك، فتحولت لهم إلى صورتها الحقيقية التي

خلت عنك، وملأتهم عذابا.

يا رب.. لقد علمت أنه لا جمال لشيء من دونك.. فأنت المصور البديع الذي بيده كـل الألـوان، فلا وجـود للألـوان من دونك..

وقــد علمت أنــه لا رحمــة لشــيء من دونــك.. فــأنت الرحمن الرحيم.. وما نراه من رحمـة ولطـف وعنايـة ليسـت سوى قطرات من محيطات رحمانيتك التي لا حدود لها.

وقـد علمت أنـه لا سـعادة من دونـك، فـأنت الـذي تملأ القلوب بالفرح الحقيقي الذي لا يزول، وكيف يزول ومصـدره منك، وأنت الحي الذي لا يموت؟

وقد علمت أنه لا كمال من دونك.. وكيف يحصل الكمال لمن تعلـق بالناقصـين، وسـجن في سـجون القاصـرين، ولم يرتق في سلم العارفين؟

وقد علمت أنه لا وجود من دونك.. فأنت صاحب الوجود المطلق، وكل ما نراه من موجودات فيوضات من بحر جودك ووجودك.

يــا رب.. فــأعوذ بــك أن يأســرني الوجــود التبعي عن الوجود الأصلي..

وأعوذ بك أن أسـجن في سـجون الظلال الـتي تريـد أن تملأ حياتي بالوهم.

وأعوذ بك أن أبحث في السـراب عن المـاء.. فلا وجـود للماء من دونك.. ولا يرتوي العطشان قبل أن يلقاك.

يا رب.. اجعلني أتنقل في الآثار بصحبة الاعتبار.. حتى لا أسجن في سجونها.. وإنما لأعبر منها إليـك، وأجعلهـا سـلمي الذي أرتقي بـه إلى عظمتـك.. فـأنت المطلـوب الأول، وأنت المقصد الأعظم.

يا رب لقد أبرزت المظاهر لتدل عليك، فـاجعلني أرحـل منها إليك..

وأعوذ بك أن تكون رحلتي من الأكوان للأكـوان، فـأكون كحمار الرحى الذي يتنقل في دائرة مفرغة، مليئة بالعبث.

اجعلني يـا رب أراك في كـل شـيء، وقبـل كـل شـيء، وبعد كل شيء، ومـع كـل شـيء، وعنـد كـل شـيء.. حـتى لا تقيدني الأشياء بقيودها، فأحجب بها عنك.

يا رب.. لقد أعطيتـني من نعمـك كـل مـا طلبتـه منـك..

لكني أعوذ بك أن تكون تلك النعم اختبارا لصدق مودتي لك.. فأنا لم أطلبها منك لتكون حجابا بيني وبينك، بل طلبتها لعلمي بكرمك وفضلك ورحمتك.

يا رب طلبتها منك، لتكون دليلي إليك، لا حجابا بيني وبينك.. فاجعلني أفرح بها لكونك مهديها ومرسلها والمنعم بها.. وأعوذ بك أن يشغلني فرحي بها عنك، فأكون كذلك الذي باع عز الأبد بدراهم مغشوشة.

يا رب.. أنا قطرة من بحر جودك.. فاغمرني بفضلك.. وأدخل قطرتي في محيط جمالك.. لتفنى في جمالك عن نفسها.. فلا سعادة للقطرة إلا في عودتها للمحيط الذي منه برزت، وبه ظهرت.

# العزة المقدسة

إلهي.. أيهـا العزيـز الكـريم الـذي لا يعـز إلا من لاذ بـه، وسكن إليه، وارتمى في بحار عبوديته..

ذل من طلب غيرك، وانتكس من ركن إلى سـواك.. فلا عزيز غيرك، ولا عزيز إلا من أعززته.

لقد رأيت من الخلائق من اعتز بماله وغناه، لكنه مـا إن نعم به أياما، حتى أذلـه دهـورا وأعوامـا.. ثم تركـه أحـوج مـا يكون إليه.

ورأيت من اعـتز بجاهـه وسـمعته.. لكن الأيـام أغـارت عليهمـا؛ فتحـول من العـزة إلى الذلـة، ومن الشـهرة إلى الخمول، ثم سرعان ما نسـيه الخلائـق، ولم تبـق إلا جرائمـه تجرعه كل صنوف الهوان.

ورأيت من اعتز بصحبة السـلاطين والملـوك والأمـراء.. لكنهم لم يذيقوه إلا كـل ألـوان الهـوان، ثم تركـوه أحـوج مـا يكون إليهم.

ورأيت من اعتز بعلمه.. فلم ينفعـه علمـه، لأنـه لم يكن لك، ولا بك، ولا لأجلك وإنمـا كـان لمباهـاة العلمـاء، ومماراة السّفهاء، والافتخار به في المجالس والمنتديات والمـؤتمرات وعلى شاشات القنوات.

ورأيت من اعتز بنسبه، فلم ينفعـه نسـبه، لأن من أبطـأ به عمله لم يسرع به نسـبه، وكـان أول من تـبرأ منـه أولئـك الذين ادعى نسبته إليهم.

ورأيت من اعتز بحسبه.. فلم ينفعه حسبه.. بل كـل من اعتز بهم أذاقوه من ألوان الهوان، ما زاده ارتكاسا وسقوطا.

كـل هـؤلاء يـا رب تمرغـوا في أوحـال الذلـة.. لأنهم لم يعرفوك، ولم يتصلوا بك، ولم يعيروك أي اهتمام.. بل توهموا أن أولئـك الـذين اسـتعزوا بهم أعظم منـك شـأنا.. لكنهم اكتشفوا في الأخير أنك أنت وحـدك العزيـز، وأنـه لا عـزة إلا لمن صحبك، ولجأ لجوارك، وتواصل معك، وعاش في كنفك.

لقـد أدرك سـحرة فرعـون ذلـك.. فعنـدما دخلـوا على فرعون كانوا فرحين مستبشرين يـرددون {بِعِـزَّةِ فِرْعَـوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [الشـعراء: 44]، لكن موسـى الـذي لم تكن

عزته إلا بك، كان ينظر إليهم حزينا، وهو يرى تعلقهم بقشة لا تغنيهم شيئا..

وسرعان ما رمى عصاه، لتلتهم كل ما أعدوه، وليعلموا حينها أن العزة لله وحده، وأن فرعون لا يساوي شيئا أمام تلك العصا الخشبية التي كانت في يد نبيك موسى.

وهكذا فعل إبراهيم الذي لم يبال بكل تلك النيران التي أعدت له.. ولا بذلك النمروذ الذي صب عليه جام غضبه.. ولا بأولئك الخلائق الذي التفوا حوله ليشموا روائح جسده، وهو يشوى..

كان إبراهيم حينها مشغولا عنهم بك.. بل كان في غاية السرور، لأنه سيقدم جسده قربانا لعظمتك وجلالك.. ولذلك لم يشعر بأي ذلة، بل كان في قمة عزته وكرامته..

وقد شئت يا رب أن تريهم بعض مظاهر عزتك، فحولت النار بردا وسلاما.. ليقف الجميع مبهوتين.. وليعلموا ذلة من اعتزوا بهم، وهوان من ركنوا إليهم.

يا رب.. أسألك وأنت العزيز الكريم.. ألا تجعلني أركن إلى شيء غيرك.. فأنت الغاية العظمى، وأنت المقصد الأسنى، وأنت الذي يذل كل من احتمى بغيرك.

وأعوذ بك يا رب من تلك الأهواء التي تقيد أصحابها بخيوط الحرير، لتجرهم إلى حتفهم، وتقضي على حقائقهم، فتكون أنت أول ما يخسرون.. وبخسارتهم لك يخسرون كل شيء.

يا رب.. لقد أمرتنا في كتابك أن نردد: {اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 26]

ونحن نرددها بألسنتنا كما أمرتنا.. فاجعلنا نرددها بقلوبنا وأرواحنا وأسرارنا، حتى نعلم أنك الملك الوحيد في هذا الكون.. وأن نداءك { لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16] ليس خاصا بالآخرة، بل هو عام في كل الأوقات.. لكن لا يسمعه إلا أصحاب البصائر.

يا رب.. لقد قلت في كتابك: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]، ونحن ـ يا رب ـ نريد تلك العزة الحقيقية التي جعلتها لأنبيائك وأوليائك وأصفيائك.. أولئك

الذين صفيت القلوب من الأغيار، فلم يلتفتوا إلا لعظمتك، ولم ينبهروا إلا بجمالك، ولم يقضوا حياتهم إلا في خدمتك وصحبتك وعبوديتك.

يا رب.. لقد حدثنا رسولك الخاتم، فقال: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن منع سخط)[1].. ونحن نعوذ بك يا رب أن نكون عبيدا لهؤلاء ولغيرهم.. ونسألك أن نكون عبيدا لك وحدك.

يا رب.. لقد قلت في كتابك: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة: 24]، ونحن نعوذ بك يا رب أن يكون آباؤنا أو إخواننا أو عشائرنا أو كل من ذكرته حجابا بيننا وبينك.. فأنت المقصود الأعظم، وأنت المحبوب الأعظم.

يا رب.. نحن لا نملك نفوسنا، ولا قلوبنا، ولا أرواحنا.. ولا نملك شيئا من أمرنا.. فكن أنت سندنا، و(آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)[2]

فنحن نعلم يا رب أنه لا يعتز بك إلا من أطاعك، وملأ قلبه بحبك، وشغل حياته بك، لا بسواك، وقد قلت في كتابك العزيز: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [المنافقون: 8]

---

1() صحيح البخاري 4/34 ح(2886)

2() رواه مسلم (2722)

# التدبير الحكيم

إلهي.. أيها المدبر الحكيم الذي لا يقوم شيء في الكون إلا بتدبيره وتسييره ورعايته.

كم نبتعد عنك حين يعترينا الألم والحـزن واليـأس لأجـل أحداث بسيطة تنزل بنا، تعجز عقولنا عن إيجاد حلول لها.

وبدل أن نهرب إليك، ونفوض الأمر إلى تـدبيرك، ننحـني للأيام، ونمتلئ باليأس والقنوط، ونغفل أن نضع بين يديك مـا حل بنا، لتدبره بحكمتك وعلمك ولطفك وخبرتك.

وكـأن الـذي دبـر هـذا الكـون من الـذرة إلى المجـرة غيرك..

وكأن الذي صـمم خلايانـا وأنسـجتنا وأعضـاءنا وأجهزتنـا بذلك التصميم العجيب الذي أبهر العلمـاء والأطبـاء والخـبراء سواك.

ولو أننا ـ ربنا ـ تركنا عقولنـا الـتي عقلتنـا، ورحنـا نتأمـل في خلقك البديع، وصنعك الحكيم، لسـمعنا كـل شـيء يسـبح بحمدك، ويقر بأنك أنت الخالق الـرازق المـدبر لكـل الأمـور، وأنه لولاك لم يكن شيئا.

فأنت الذي أفضت علينا وعلى كل شيء نعمـة الوجـود، وأنت الـذي أمـددتنا وأمـددت كـل شـيء بكـل أنـواع الـرزق، وفيوضات الفضل.

أفيعجز من {أَعْطَى كُـلَّ شَـيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدَى} [طـه: 50] أن يعطينا ما سألناه، أو يدبر من أمورنا ما عجزنا عنه؟

أو يمكن لليأس أن يحل في عقـل أو قلب شـخص يعلم أنك الخـالق الـرازاق المـدبر الحكيم العليم الخبـير.. الـذي لا يستحيل عليه شيء، وكيـف يسـتحيل عليـه، وهـو خـالق كـل شـيء، ومـدبر كـل أمـر، والـذي لا نهايـة لعلمـه، ولا حـدود لقدرته؟

وهل يكون العجـز إلا لـذلك الجاهـل الـذي لا يعـرف من الأشياء إلى ظواهرها.. وأنت المحيط بكل شيء علمـا، دقيقـه وجليله، وأوله وآخره، وعاقبتـه وفاتحتـه، لا نهايـة لمعلوماتـك ولا حصر لها، وقد قلت في كتابك الكريم على لسان نبيك شعيب: وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (لأعراف: 89)؟

ولـذلك كـان من أسـمائك (الواسـع).. فـأنت واسـع في علمك وخبرتـك ولطفـك وقـدرتك وحكمتـك ورحمتـك.. وكـل شيء.

ولـذلك أينمـا وجهنـا عيوننـا وقلوبنـا وعقولنـا وأورواحنـا وجـدناك، ووجـدنا تـدبيرك وحكمتـك ولطفـك. وسـمعنا كـل شيء يردد قولك: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَـا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:115)

ولذلك لا مكان لليأس معك.. وهل اليـأس إلا من أولئـك الجهلة العاجزين الممتلئين بالضعف.. أولئـك الـذين وصـفتهم بأنهم { لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَـهُ وَإِنْ يَسْـلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُـوبُ } [الحج: 73]؟

وقد عدت يا رب لكل جامعات الدنيا ومخابرها، وسـألت جميع علمائها، وفي جميع التخصصات، فـأخبروني بصـدق مـا ذكرته عن الذبابة، بل أخبروني بأن العلم ـ مع تطوره الكبـير، وفي كل المجالات ـ لا يزال عاجزا أمام أبسط الأمور، وأحقر الأشياء.. وأنه يظل دائما يمد يده إليك طالبـا مـددك وفضـلك وجودك.

يارب.. أنا أعلم، بل أوقن.. أن كل تلـك المعامـل، وكـل أولئك العلماء، لم يكونوا ليحققـوا شـيئا، وفي أي مجـال دون مددك..

فـأنت الـذي هـديتهم، وأنت الـذي علمتهم، وأنت الـذي دللتهم على ما عجزت عقولهم عن معرفته وتدبيره.

لكن بعضهم يارب.. وبدل أن ينسب الفضل إليـك، ويملأ عبادك بالإيمان واليقين، راح يـردد مـا رددده قـارون من قبلـه حين فرح بعلمـه، ونسـي فضـلك، وقـال: { إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: 78]

فنعوذ بك يا رب أن ننسب أي شيء لتدبيرنا، أو عقولنـا، أو علومنا.. فأين تدبيرنا، وعقولنا، وعلومنا منك؟

نعـوذ بـك يـا رب أن نكـون كأولئـك الـذين دعـوك في الضـراء، فلمـا مننت عليهم بالسـراء، راحـوا يغفلـون عنـك، وينسبون لأنفسهم ما حل بها من فضلك..

لقد قلت تذكرهم في كتابـك: {فَـإِذَا مَسَّ الْإِنْسَـانَ ضُـرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ

فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} [الزمر: 49 - 51]

يا رب نعوذ بك أن نُفتن بعقولنا وعلومنا.. فنحن نعلم أن كل شيء منك.. حتى تلك الخواطر التي ترد علينا، وتملأ حياتنا سعادة وسرورا هي من فيوضات رحمتك.. وليست من تدبير عقولنا العاجزة..

وهكذا فإن كل ما نصل إليه من حقائق في الكون والحياة وكل شيء، هي إلهامات منك إلينا.. فأنت المعلم الذي يفيض على عباده من فيض علمه.. وأنت المدبر الذي يوفر لكل شيء ما يحتاجه.

يارب.. فاجعلنا نركن إليك.. لا إلى الأشياء، ونفرح بك لا بالأشياء.. ونمد يدنا إليك لا إلى الأشياء.. حتى لا تكون الأشياء فتنة لنا، وحجابا بيننا وبينك.

يا رب.. لقد سعد من قرأ حروف تدبيرك في كل شيء.. فلم ير الرياح إلا مرسلة منك، متحركة بتحريكك: { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الأعراف: 57]

ولم ير السحاب وهو يتجول في السماء ليبحث عن الأرض التي يرويها إلا متحركا بعلمك وقدرتك: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: 57]

وهكذا لا يرى شيئا إلا رأى فيه مظاهر علمك وقدرتك وحكمتك ولطفك: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)} [البقرة: 164]

لقد سعد.. لأن الأشياء لم تزده منك إلا قربا.. والتدبير لم يزده منك إلا معرفة.. فصار حقيقا بذلك الوصف الذي وصفت به العلماء، فقلت: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاءُ } [فاطر: 28]

فنسألك يـا رب أن ترزقنـا هـذه الرؤيـة، ونعـوذ بـك من رؤية المحجوبين المنشغلين بأنواع التدبير عنك..

أولئـك الـذين يتنـاولون من بسـاتين فضـلك، وبـدل أن يلهجوا بشـكرك، ويعـترفوا بفضـلك، ويحمـدوك على نعمـك.. يذكرون كل شيء، يذكرون المـاء والهـواء والتربـة والضـغط الجوي.. وينسوا أن يذكروك أنت.

أو أولئك الذين يذكرون الأطباء والمستشفيات والأدويـة، ويثنون عليها الثناء العـريض، وينسـون أن يـذكروك، مـع أنـك أنت الطبيب والدواء.. ولولاك ما حل الشفاء، ولا ارتفع البلاء.

# النور الهادي

إلهي.. أيها النور الهادي الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هداه سواء السبيل.. ليرتقي من السفل إلى العلو.. ومن النقص إلى الكمال.. ومن الحجاب إلى المشاهدة.

لولا نورك الذي أخرجت به خلقك من عالم الظلمات، لما ظهرت السموات والأرض، ولما بدا العالم بهذه الصورة البديعة التي نراها..

فنحن نرى كل شيء بنورك، ولولا نورك لعشنا مثل ذلك الأكمه الأصم الذي لا يعرف عالم الأصوات، ولا عالم الألوان، ولا عالم الأحاسيس، ولا عالم المشاعر، ولا عالم الأفكار.. ولا أي عالم من العوالم.

بنورك يا رب الذي ملأت به أحاسيسنا أدركنا الأشياء..

وبنورك يا رب عرفنا الأشياء.. واهتدينا إلى أسمائها وحقائقها وخصائصها..

فلولا نورك الذي نورت به أبصارنا وبصائرنا ما ميزنا بين ما يضرنا وما ينفعنا..

ولولا نورك وما اهتدينا في حياتنا إلى شيء.. فأنت الهادي الذي أنقذ خلقه من الضلال، وأنت النور الذي أخرج خلقه من الظلمات.

وأنت الذي علمتنا كيف نأكل وكيف نشرب، وكيف نلبس..

وقد علمتنا بمجرد نزولنا إلى الأرض كيف نستر أنفسنا، ونتجمل بما أنزلته من ثياب، فقلت: {يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 26]

ثم حذرتنا أن تتلاعب الشياطين بما أنزلته لنا، فقلت: { يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 27]

وهكذا علمتنا كيف نتحول إلى بشر ممتلئين بالحضارة والمعارف والعلوم..

فكل العلوم منك، وأنت الذي هديت خلقك إليها، ولولا هدايتك ما اهتدوا إلى شيء..

وكل الاكتشافات والاختراعات هبة من هباتك لعبادك، ليعيشوا حياة مليئة بالطمأنينة والراحة، وليتفرغوا بعدها لمعرفتك، وعبادتك، وسلوك طريقك.

فأعوذ بك يا رب أن يتوجه شكري للعلماء والمفكرين والمكتشفين والمخترعين.. ثم لا أتوجه بشكري إليك.. فلولاك لم يصلوا إلى شيء.. فأنت الهادي الذي دلهم، وأنت المعلم الذي علمهم.

أنت يا رب مثل ذلك الذي بنى بيتا، ثم راح يصف لزواره ما أودع فيه من خصائص ولطائف.. فأما المتنورون بنورك، فقد فرحوا بك، وبفضلك، وسبحوك على جميل صنعك، وحمدوك على جميل فضلك.. وأما المحجوبون، فقد غفلوا عنك، وراحوا يشكرون من اكتشف بعض مظاهر صنعتك، ويحجبون به عنك.. مع أنه لم يكن ليكتشفه لولا دلالتك.

لقد سمعت بعضهم يذكر ذلك الذي اخترع المصباح الكهربائي، وبدل أن يكتفي بشكره، راح يلحد في آياتك، ويمن به عليك.. ويذكر أنه لولاه لغرقت البشرية في الظلمات.

وهو يعلم أن ذلك المصباح لم يكن ليعمل لولا الكهرباء التي ليست سوى آية من آياتك.. ومثل ذلك الزجاج والأسلاك التي صنع بها المصباح.. ومثل ذلك العقل الذي جعله يفكر ذلك التفكير.. أو يهتدي لذلك الصنع.

لكنك ـ يا رب ـ تحجب من تشاء بما تشاء..

لقد حجبت قارون عن معرفة سر فضلك عليه؛ فراح يفتخر بعلمه، وينساك.. لقد قال لهم، وهو ممتلئ بالكبرياء: { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: 78]

وهكذا فعل أقوام الأنبياء الذين توهموا أن ما وصلوا إليه من معارف يغنيهم عن رسل الله، مع أن معارفهم ليست سوى هبة إلهية ليشكروه، لا ليكفروه.

لقد قال الله تعالى يذكرهم، ويذكر سبب حجابهم: { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [غافر: 83]

يا رب.. فأعوذ بك أن يحجبني العلم عنك.. فالعلم ليس

سوى نور من أنوارك التي تدلنا عليك.. لكنه قد يتحول إلى ظلام وضلال في قلوب المستكبرين الذين يحتجبون به عن الحقائق، بدل أن يهتدوا به إليها.

يا رب.. أنا أعلم.. بل أوقن أن كل الاكتشافات والاختراعات فضل من فضلك.. وآية من آياتك.. وإني وإن شكرت أولئك الوسطاء الذين اكتشفوها أو اخترعوها إلا أن شكري الأول لك.. وحمدي العظيم لك.. لأنه لولاك لم يصلوا إلى شيء.

فأنت الذي أوصلتهم، وأنت الذي دللتهم، وأنت الذي علمتهم، وأنت الذي جعلتهم وسائط رحمتك وفضلك على عبادك.. لترزقهم من فضلك، ولتختبر إيمانهم بك، وهل يجعلون النعمة وسيلة إليك، أم يجعلونها حجابا بينهم وبينك؟

يا رب أنا أنظر إليهم مثلما أنظر إلى النحل الذي هديته.. ولولا هدايتك ما استطاع أن يبني مساكنه بتلك الهندسة البديعة..

لقد أوحيت له.. كما أوحيت لكل المخترعين والمكتشفين والباحثين.. لقد قلت تذكر ذلك: { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 68، 69]

وقد ذكرت في كلماتك المقدسة أن البشر عندما تاهت بهم السبل في معرفة كيفية التعامل مع موتاهم أرسلت الغراب ليهديهم.. لقد قلت تذكر ذلك: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } [المائدة: 31]

وهكذا كنت أنت الذي علم نوحا كيفية صناعة الفلك، وقلت له: { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [هود: 37]

وهكذا كنت أنت الذي علم أيوب كيف يداوي مرضه، وقلت له: { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: 42]

وهكذا كنت المختبئ وراء كل طبيب أو صيدلي أو

مهندس أو مخترع أو مكتشف..

أمـا أصـحاب البصـائر، فيبصـرونك، كمـا يبصـرونهم، ويعلمون أنك الأصل وهم التبع.. وأنـك المعلم وهم التلاميـذ.. وأنك الهـادي وهم المهتـدون.. لكن المحجـوبين، يـرونهم، ولا يرونك، ويعبدونهم، ولا يعبـدونك.. ويسـجدون شـكرا لهم، ولا يسجدون شكرا لك.

فاهدني يا رب للحقائق التي تنزع عن عيـني الغشـاوة.. ونور قلبي بالنور الذي يكشف لي أسرار الأشياء.. فلا يمكنني أن أعرفك، وأنا محجوب بالطلاء والبهرج الذي يزور الحقائق، ولا يدل عليها.

# الخير الأعظم

إلهي.. يا مصدر كل النعم، ومنبع كل خير..

يـا من خـاطبت عقولنـا وأرواحنـا بكلماتـك المقدسـة، تسألها قائلا: { آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 59]؟

أجل.. يـا ربنـا، فـأنت الخـير الأعظم، وأنت صـاحب كـل فضــل ونعمــة.. ولــولاك لم نعــرف الابتســامة، ولم نمتلئ بمشاعر الفرح، ولم تغمرنا لحظات السعادة، ولم نعـرف في حياتنا إلا الشقاء.

لولاك لضاقت بنا الأكوان، وضاقت بنا الحيـاة.. وكيـف لا تضيق ولا أمل إلا معك، ولا سعادة إلا بك؟

فذلك الحنان الذي قابلناه أول ما خرجنا إلى هذه الــدنيا لم يكن إلا منك.. فلولا تلك الرحمة التي أودعتها قلوب آبائنــا وأمهاتنا، لرمونا، ولما أجهدوا أنفسهم في تحمل عنت الحيـاة من أجلنا..

وهكذا كل ما رأيناه من مشاعر الود واللطف والحنــان.. كلها منك، وبك، فقـد كنت أنت الـودود، وأنت اللطيـف الـذي يستعمل كل الوسائل لإسعادنا، وأنت الحنّان الذي يملأ قلوبنا بالفرح والأمل والسعادة.

أما ما نراه أو ما حصل لنا من الآلام، فهي مغمــورة في جنب فضلك العظيم، وهي محدودة بزمن محدود، سرعان ما يزول، لتحل بعـده نعمـك الخالصـة الـتي لا تُنغص، والصـافية التي لا تُكدر.

أنا أعلم يا رب أنك ما خلطت هذه الدار بتلك الكـدورات إلا لتنبهنـا وتربينـا وتهـذب أخلاقنـا.. فقـد رأيت بعضـهم يغـتر بصـحته، ويفخـر على من حولـه بكونـه لم يمـرض في حياتـه أبـدا، وبـدل أن يشـكرك، ويتواضـع لعظمتـك، راح يسـتعلي عليـك، وعلى خلـق اللـه، ويـذيقهم بـأس عضـلاته المفتولـة، وعقله الفارغ.

وهكذا رأيت من الأغنيـاء ممن رُبي في أحضـان الـثروة، يتيـه على الفقـراء، ويسـتكبر عليهم، بـل يـدعو إلى إبـادتهم لكونهم لا يختلفون عن البعوض والذباب.

ولـو أنـه ابتلي بمـا ابتلـوا بـه.. وذاق من ضـنك الحيـاة

وضيقها بعض ما ذاقوه لخفف من كبريائه، ولعاد إليه وعيه.. لكنك يا رب تبتلي من تشاء بما تشاء.

ولذلك كان من رحمتك وحكمتك أن تضع في الحياة كل الألوان حتى تتميز جميع الصور، ويتميز معها الخبيث من الطيب..

لقد ذكرت ذلك في كلماتك المقدسة، فقلت: {وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} (الزخرف:33)[1]

وذكرت أيضا ذلك الصلف والكبرياء التي تعتري أولئك الجاحدين الذين غمرتهم ببعض فضلك، وبدل أن يشكروك، ويطلبوا المزيد، راحوا ينشغلون بما أعطيتهم، ويتصورون أنه حقهم، ولا يعلمون أنهم مستدرجون، وأنك لم تعطهم إلا لتختبر مواقفهم..

لقد قلت في كلماتك المقدسة تذكر ذلك: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ} (المؤمنون:55 ـ 56)

وقلت: {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}(آل عمران:178)

وهكذا أعلمتنا بأن رضاك ليس في تنزل النعم، وسخطك ليس في تنزل البلاء، وإنما علامة رضاك هي ذلك الرضا الذي نبديه لك، سواء أنعمت علينا، أو ابتليتنا.. لأنك لم تفعل ذلك بنا إلا لتربينا، وتعلمنا، فالدنيا دار تربية واختبار، وليست دار جزاء واستقرار.

لقد قلت تذكر ذلك، وتفنده: { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } [الفجر: 15، 16]

وذكرت أن غايتك من كل ما يوجد في الدنيا من أنواع البلاء هو تمييز الصالحين الصادقين من المنافقين الكاذبين.. لقد قلت تذكر ذلك: { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ

---

1()أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية..

عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (آل عمران: 179)

لقد جربت ذلك يا رب مع من يحيط بي من الناس.. ذلك أني بعد أن أظهرت لهم بعض إحساني تقربوا مني، وأظهروا مودتي، لكني بمجرد أن أصابني من بلائك ما منعني من الإحسان إليهم، نفروا مني.. ولم يبق إلا الصادقون المخلصون، الذين لم يكتفوا بالزهد فيما عندي، وإنما راحوا يطلبون مني أن أتقبل إحسانهم وفضلهم.

لقد عرفت من ذلك سر البلاء.. وأنه لولاه لعشت حياتي كلها مخدوعا بأولئك المنافقين المحيطين بي.. والذين لم تكن مودتهم لشخصي، وإنما لذلك الكرم الذي كنت أبديه لهم.

لقد تعلمت من ذلك يا رب سر البلاء.. وحمدتك عليه، لأنك به نبهتني، ولولاه لم أكن لأكتشف الحقيقة، وأميز بين الصحيح والمزيف.

إلهي.. لقد رأيت بعض المستكبرين الجاحدين يرتدي نظارة سوداء قاتمة، ثم يطل من خرم إبرة على بعض مظاهر الشقاء الموجودة في الدنيا، ثم يقول باستعلاء مخاطبا بعض المغفلين المحيطين به: (ما دام الشر موجودا.. فالله ليس بموجود.. ذلك أنه إما أن يريد منع الشر لكنه لا يقدر؛ فهو إذن عاجز.. أو هو يقدر لكنه لا يريد؛ فهو إذن بغيض... أو هو قادر ويريد معًا؛ فهو إذن شرير)[1]

يا ويله.. كيف يفكر هذا الذي يدعي العلم والفلسفة؟

فلو أنه اكتفى بالثقة في هذا العظيم الذي أبدع هذا

---

1() هذا نص [معضلة الشر] التي ذكرها أبيقور، ثم تبناها بعده كل الملاحدة، وهي . تعتبر في الغرب اليوم، أهم شبهة إلحادية، وقد صرح كثير من أئمة الإلحاد، مثل (أنتوني فلو)، أهم منظري الإلحاد في العالم، في النصف الثاني من القرن العشرين، قبل تراجعه في بداية القرن الواحد والعشرين، أن شبهة الشر هي سبب إلحادهم، وجحدهم وجود إله خالق .. وهكذا نرى الفيلسوف الأمريكي (مايكل تولي) في مناظرته مع (ويليام لين كريغ) (2010 م)، اكتفى ـ تقريبا ـ باستعراض مشكلة الشر لإنكار وجود الخالق، مصرحا أن الحجة المركزية للإلحاد هي حجة الشر، وهو ما فعله أيضا الفيلسوف البريطاني الملحد (ستيفن لاو)، في مناظرته مع كريغ (2011 م)، وقد نشر (باري وتني) دراسة ببليوغرافية عن المؤلفات الفلسفية واللاهوتية التي نشرت عن مشكلة الشر في ثلاثة عقود فقط، من (1960 -ـ 1990)، فإذا هي تبلغ 4200 دراسة.

الكون بمنتهى الدقة والحكمة واللطف، لعرف أنه يستحيل عليه أن يفعل شيئا من دون أن تكون خلفه حكمة.. وعرف أن الجهل بالحكمة لا يعني عدم وجودها.

هو يفعل ذلك مع من يعظمهم من العلماء والفلاسفة والمفكرين.. فيكتفي فقط بعرض أفكارهم ونظرياتهم، ويعتبر مجرد نسبتها إليهم كافية في إثباتها..

وهكذا لو أنه اكتفى بذلك منك، وراح يثق فيك، كما يثق فيهم لوجد عشرات الحلول التي تحل له هذه التي سماها معضلة.

وأول ذلك النظر في الآثار العظيمة التي يحدثها البلاء في النفوس والمجتمعات، فلولاه لم يكن هناك شيء اسمه صبر، ولا رحمة، ولا حزن، ولا ألم.. وكلها وإن كانت قاسية إلا أن لها آثارها في التهذيب والتربية والإصلاح.

ولو أنه عرف ـ من خلال ما أنزلته في كلماتك المقدسة على جميع أنبيائك ـ أن هذه الدار، ليست دار قرار، وإنما هي دار اختبار، ولفترة محدودة، وأن ضيافتك الحقيقية معدة هناك، ولكنها معدة للطيبين فقط، أولئك الذين ينجحون في الاختبار.. لعرف أن الشر الذي يراه ليس سوى امتحان مثل تلك الامتحانات التي نجريها في الدنيا، لاختبار من نريد توظيفهم في أي وظيفة من الوظائف.

فهل رأى العالم أجمع أحدا يرقى لأي منصب، أو ينال أي شهادة، أو يطمع في أي مكسب من دون أن يبذل أي جهد، أو يعاني أي عناء، أو يضحي أي تضحية؟

فإن كان هذا في مكاسب الدنيا التي تفنى، فكيف في مكاسب الآخرة التي لا تنتهي أبدا؟

لقد قلت تذكر لنبيك هذا بعد كل ذلك البلاء الذي عاناه: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: 4، 5]

وذكرت له آثار ما نزل به في حياته من آلام، فقلت: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)} [الضحى:6-11]

وهكذا كان يمكن لذلك الجاحد أن يجد عشرات الحلول لتلك التي سماها معضلة، ويتأدب معك، ومع خلق الله الذي

غواهم..

ولكنه يا رب لم يفعل.. لا لأنك لم تهده، أو لم تدله على السراط المستقيم.. وإنما لأنه لم يـرد أن يسـمع لـك، ولا أن يسلك طريقك المستقيم.

لقد امتلأ بحب نفسه وأهوائه، وقد رأى أنك عقبة تحــول بينه وبين تلك الأهواء الآثمة، فلذلك لم يجـد حلا للفـرار منـك سوى الجحود، واستعمال البلاء وسيلة لذلك.

هو مثل ذلك التلميذ الكسول الذي يبحث عن أي فرصة، ليفر من بين يدي أستاذه، فلذلك إذا ما سمع من أســتاذه أي كلمة نابية، أو فـرض عليـه بعض الواجبـات الثقيلـة، راح يفـر منه، ويتذرع بأن أستاذه لم يرد به إلا الشر، مع أنه لم يرد بـه إلا الخير.

أو مثل ذلك الذي يفر من الطبيب الجراح الذي يريـد أن يستأصل ما يؤذيه بحجة أن الجراح يحمل سكينا، وهــل يمكن للجراح أن يؤدي وظيفته من غير سكين؟

وهكذا لو تأمل هؤلاء في أي شيء.. فسيجدون رحمتــك محيطة بكل شيء.. حتى في ذلك البلاء الذي يتألمون.

لو أنهم فعلـوا ذلـك لحـولت ــ بفضـلك وكرمـك ــ النـار عليهم بردا وسلاما.. ولما شعروا بالآلام النازلة بهم.

وكيف يشعر بالآلام من يعلم أنه سيعود إليـك، ويسـكن دار السعادة التي لا نصب فيها ولا وصــب، ولا حــزن، ولا ألم، ولا شقاء؟

وكيـف يشـعر بـالآلام من يعلم أن الـدنيا كلهـا سـاعات محدودة أمام حبل الزمن الممتد إلى ما لا نهاية: {كَأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغ} (الاحقاف: 35)، {كَـأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَهَـا لَمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا عَشِـيَّةً أَوْ ضُـحَاهَا} (النازعات:46)؟

وكيف يشعر بالألم من يعلم أن كل ثانية تمــر في البلاء، يتضاعف فيها رصيد الفضل الإلهي الـدائم الممتـد، وقـد قـال نبيك يخبرنا عن ذلك: (يؤتى بأنعم أهـل الـدنيا من أهـل النـار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هـل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك من نعيم قط؟ فيقول: لا والله يـا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا من أهل الجنـة، فيصـبغ صـبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر

بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط)[1]

وقال: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)[2]

يا رب.. فأسألك أن تملأ حياتي بالنظر إليك، والاكتفاء بك.. فأنت الخير الأعظم الذي لا تحل الطمأنينة إلا لمن لجأ إليه، وسكن في حضرته، وسجد قلبه لعظمته.

اجعل يا رب قلبي ساجدا لك سجودا أبديا.. فلا نعمة إلا في السجود لك.. ولا فضل إلا في القرب منك.

---

1 () رواه مسلم (8/135)

2 () رواه الترمذي رقم (2403)

# الجمال المطلق

إلهي.. يـا من تجلى جمالـه في كـل المـرائي.. فصـارت المرائي فانية في بحر إطلاقه.

أعوذ بك أن تقيدني المظاهر، أو تسجنني، أو تغـل يـدي عن رحلتي إليك، فأنا لا أريدها هي، بل أريدك أنت.

أنا لا أريد أن أسجن في سجون الأكوان المحدودة.. بـل أريد أن أرحل إليك.. إلى عالم الإطلاق الذي لا يعرف الحدود والقيود.

فأعوذ بك ـ يا رب ـ أن أكون كذلك المجنون الذي سجن في أحداق ليلى، فصارت حياته كلها ليلا..

وكيف لا تصبح حياته كلها ليلا، وهو لم يرحـل من عيـون ليلى إليك، ولم يسـتدل بهـا عليـك، ولم يعلم أن وراء عيونهـا التي أسرته عالما كبيرا من الجمال لا حدود له..

ولم يعلم أن عيون ليلى ليست سوى قطرة من محيــط جمالك الذي لا حدود له.

ولم يعلم أن عيـون ليلى لم تكن سـوى قنطـرة توصـل قلبه بالمحيط.. لتخرجه من عـالم الجمـال المقيـد إلى عـالم الجمال المطلق.

ولو أنه علم ذلك ـ يارب ـ لعـاد إليـه عقلـه، بـل لأضـاف لعقله عقولا كثيرة.

فالجمال المطلـق ــ الـذي هـو جمالـك يـا رب ــ يجعـل صاحبه كمرآة كبيرة عاكسة تمتـد كلمـا امتـد النظـر، وتتسـع كلما اتسعت االهمة.

يارب.. فأسألك أن تسقيني من شراب محبتك ما يغنيني عن كل شراب..

وأسألك أن تسقيني بكؤوس الأكوان.. فقلبي أوسـع من أن تكفيه تلك الأكواب الصغيرة.

وأسألك أن تسقيني بكأس الإطلاق، فقلبي الذي عرفـك لم يعد يرتضي سكنى الجحور والوكور والقصور.. بل يريد أن يمتد بامتداد جمالك الذي لا حدود له.

يا رب.. وأسـألك أن تجعـل كـل جـوارحي قلوبـا وعيونـا لتتملى حسنك الزاهي في كل شيء.. فلا ترى شيئا إلا وتشم

فيه عطر جمالك.

يـا رب.. أنـا أعلم أن عظمتـك وعزتـك تـأبى أن يـرى جمالك إلا المخلصـون الصـادقون، أولئـك الـذين اسـتأثرتهم، وطهرتهم، وملأتهم سكينة وهمة.

فاجعـل قلـبي الـذي لا يتقلب إلا بتقليبـك طـاهرا ممتلئـا بالصدق والإخلاص والسكينة والهمة حـتى يصـبح محلا صـالحا لتجلي جمالك.

فلا يمكنني يـا رب أن أحبـك الحب كلـه، قبـل أن تطهـر قلبي من غيرك.. فأنت لا ترضى الشريك، والقلب الصـادق لا يتسع للشركاء.

يا رب.. لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة: {يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَـافِرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: 54]

فاجعلني من هؤلاء الذين شرفتهم بحبك.. أولئـك الـذين تطهرت نفوسهم، وارتقت أرواحهم إليك، بسـبب حبهم لـك.. فحبك يا رب أكبر مدرسة للتربية والأخلاق والهمة العالية.

حبك يا رب هو البلسم الذي يداوي الجراح، وهـو الرقيـة التي تغني عن الرقاة، وهو الدواء الذي لا يكون معه داء..

حبك يـا رب هـو السـعادة الـتي لا شـقاء بعـدها، وكيـف يشقى من حبيبه صاحب الجمال الـذي لا يفـنى، ولا يحـد، ولا يحصر؟

حبك يا رب هو الإكسير الأحمر الذي يرفـع الإنسـان من عالم الجسد الممتلئ بالطين والوحـل والحمـأ المسـنون إلى عالم الأرواح التي تسبح في بحر الجمال المطلق.

حبك ـ يا رب ـ هو الجنة الحقيقية.. والمعجلـة لمن شـاء أن يدخلها..

والبعد عنك ـ يـا رب ــ هـو جهنم الحقيقيـة.. فمن ابتعـد عنك عذب حتى لو سكن القصـور، ووفـر لطينـه كـل أسـباب الراحة والسعادة.

وكيـف تسـعد روحـه، وهـو يسـجنها في سـجون الطين، ويقيدها بذلك الجمال الوهمي الذي تحول إلى وثن يعبده من دونك.

هو يا رب يختصر حقيقته في جسـده، ولـذلك راح يلـبي ما يطلبه جسده، وينسى روحه التي لا راحة لها إلا معــك، ولا سعادة لها إلا في الرحلة إليك، ولا طمأنينة لها إلا في لقائـك، والاستقرار في جوارك.

يا رب.. أنا أعلم رحمتك ولطفك ورفقك بعبادك وتربيتك لهم.. فلذلك تتيح لهم الفرص ليختاروا منهـا مـا شـاءوا.. إلى أن يصلوا إليـك بعـد أن يعلمـوا أن مـا عـداك سـراب ووهم.. وأنك أنت وحدك الحق.

لقد ذكرت ذلك في كلماتـك المقدسـة، فقلت: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْـآنُ مَـاءً حَتَّى إِذَا جَـاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئًا وَوَجَـدَ اللَّهَ عِنْـدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَـابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [النور: 39]

فـأعوذ بـك يـا رب أن أختـار غـيرك، أو أعـذب بتلـك الاختيارات المشؤومة.. أو أقضي عمري وأنا أتجول في عالم الجمال الفاني الممتلئ بالقيود والأغلال..

بل اجعلني أنجذب إليك، وأكتفي بـك من غـير أن أتلطخ بتلك القيود والسجون والأوهام..

يا رب فاسقني من بحر الحقيقـة.. وأعـوذ بـك من بحـار الأوهـام والسـراب.. فأنـا لا يـروي قلـبي وروحي وسـري إلا أنت.. فكن أنت غـايتي ومقصـدي وقبلـتي وفروضـي ونفلي وحديثي وشغلي.. وكل شيء لي.

# الخلاق البديع

إلهي.. أيها الخالق البارئ المصور.. فاطر السموات والأرض.. وبديع كل شيء.

كنت اليوم خارج البيت، أتجول في حقولك التي أبدعتها.. كانت الشمس مشرقة.. وكانت الطبيعة تسبح بحمدك، وترتل آيات جمالك الذي لا حدود له بلسان أزهارها وعطورها وبراعم أشجارها وثمارها..

وفجأة غابت الشمس، وامتلأت السماء بالسحب.. وما هي إلا لحظات حتى تنزلت أمطار جميلة غيرت المشهد تماما.. لكن إلى صورة لا تقل جمالا عن صورته الأولى..

لقد كانت الأمطار وهي تتهاطل بموسيقاها الجميلة التي اختلط فيها صوت الرعد مع لمعان البرق تسبح جميعا بحمدك، وتحدث في النفوس آثارا جديدة تدل على إبداعك وجمالك وتنوع مظاهر قدرتك وتصويرك.

وبعد لحظات.. هبت رياح شديدة.. ثم تنزلت بعدها ثلوج كثيفة، كست الأشجار بحلتها البيضاء الجميلة.. وتحول الحقل في ساعات محدودة إلى سجادة بيضاء ناصعة ممتلئة بالجمال.. وخرج الصبية مع آبائهم وأمهاتهم يفرحون ويمرحون، ويقذف بعضهم بعضا بكرياته اللطيفة.

وهكذا كنت أرى الجبال منها {جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ } [فاطر: 27]

وكنت أرى الحيوانات منهم { مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ } [النور: 45]

وكنت أرى {جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [الأنعام: 141]

وكنت أرى {زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا } [الزمر: 21]

وكنت أرى البشر مختلفي الألوان والأشكال، واللغات والطباع.

وهكذا كنت أرى تنوعا كبيرا في إبداعك يا رب.. فأنت

الذي خلق كل شيء وبرأه وصممه وصوره ليملأ حياتنا بكل ألوان البهجة، وليصرف عنا كل ألوان الملل، ولنعرف بعد ذلك كله مدى قدرتك التي لا حدود لها.

يا رب.. لقد قال عبدك الصالح يذكر ذلك في مناجاته لك: (إلهي علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء)[1]

فأسألك يا رب ألا أكون كذلك المشاهد البسيط الذي يستغرق في مشاهدة أفلامه متأثرا بها، منفعلا لها، غافلا عن المصمم والمخرج والمهندس والمبدع الذي أخرجها بتلك الصورة.

أسألك يا رب أن أرى في كل شيء لمسات إبداعك وتصميمك وتصويرك.. حتى تكون تلك المشاهد زادا لقلبي يرفعني إليك، ولا يحبسني في سجون الأشياء.

يا رب لقد وصفت عبادك الصادقين من أولي الألباب، فقلت: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران: 190، 191]

يا رب.. فكما جعلت اختلاف الليل والنهار، وخلق السموات والأرض معارج لترفعهم بها إليك، فاجعلها معراجي إليك.

وارفع درجتي ـ يا رب ــ لأرى من فضلك ما حجب عن خلقك.. فأنت القادر على كل شيء، وقد قلت عن نبيك وخليلك إبراهيم: { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام: 75]

وقلت عن خاتم أنبيائك وسيدهم: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18) } [النجم: 13 - 19]

يا رب.. وأعوذ بك من الحجاب الذي وقع فيه الغافلون

---

1() إقبال الأعمال ص 348.

حين راحــوا بعقــولهم الــتي أنت أبــدعتها يفرضــون عليــك القوانين التي توهموا أنهم اكتشفوها..

لقد راح وهمهم يخبرهم أنــه لا جنـة ولا نـار، ولا بعث ولا حساب، ولا موازين ولا سراط.. وأن كل مـا أخـبر بـه رسـلك وهم وأساطير..

عجبا لهم.. ولعقولهم القاصرة.. فهـل يمكن لمن صـمم هـذا الكـون البـديع، أن يعجـز أن ينشـئ كونـا آخـر، أو حيـاة أخرى، بقوانين غير هذه القوانين؟

فهل المصمم والمهندس هـو الـذي يفـرض إبداعـه على تصميمه أم أن الإبداع هو الذي يفرض نفسه؟

وهل الرسـام هـو الـذي يختـار ألوانـه، والمشـاهد الـتي يلهمه إياها ذوقه، أم أن الألـوان والمشـاهد هي الـتي تفـرض نفسها عليه؟

وهل الشاعر هو الذي ينتقي الألفاظ والأوزان والقـوافي والمعاني التي يخرج بهـا قصـيدته.. أم أنهـا هي الـتي تفـرض نفسها عليه؟

ويــل لهم.. ولعقــولهم القاصــرة.. فلــو تــأملوا قليلا في الكون، ورأو مظـاهر التنـوع فيـه، وتـأملوا في الأحيـاء، ورأوا كيـف أن بعضـها يعيش في البحـر، وبعضـها يعيش في الـبر، وبعضها يطير في السماء.. وبعضها صغير جدا، وبعضـها كبـير جدا..

ولـو عـادوا لموسـوعات الحيـاة والأحيـاء لوجـدوا ملايين الأنواع التي تختلف في كل شيء..

فهــل يعــز على من خلــق كــل هــذا، أن يحــيي الخلــق بقوانين أخرى، وسنن جديدة، وهيئـات هـو الـذي يختارهـا، أم أن القوانين التي وضعها أول مرة، ستفرض عليه كل مرة؟

ويل لهم.. وويل لعقولهم القاصـرة.. ألم يـروا إلى مبـدأ خلقهم حين كـانوا يسـبحون كالحيتـان في البحـر، ثم فجـأة خرجـوا إلى الـدنيا، ليتنفسـوا هواءهـا، ويتحولـوا من كائنـات بحريــة إلى كائنــات بريــة.. أيعجــز الــذي فعــل هــذا بهم، أن يحييهم حياة جديدة، لا برية ولا بحرية؟ أم أن العقل لا يحتمل إلا الحياتين فقط؟

ويــل لهم.. ألم يعلمــوا أن الــذي أبــدع الزهــور الممتلئــة بالأريج العطر، والفواكـه الممتلئـة بالمـذاق الطيب، والطيـور

الجميلة صـاحبة الأصـوات العذبـة.. لن يعجـز أن ينشـئ جنـة لعباده الصالحين تحوي أصناف الجمال مـا رأوا مثلـه ومـا لم يروا، جزاء لهم على صدقهم وصلاحهم؟

ويل لهم.. ألم يعلموا أن الذي خلـق الـبراكين والـزلازل والحيات والعقارب لن يعجز أن يبني دارا ممتلئة بكل أصناف العذاب لأولئك المجرمين المستبدين الظلمة الذين اسـتكبروا عليه، وأذاقوا خلقه ألوان الهوان؟

يـا رب.. طهـر عقلي من أن تتسـرب إليـه أمثـال هـذه الضلالات.. فأنت الهادي الذي تنعم على الصادقين بالهدايـة.. كما أنك المضل الذي تـترك المنحـرفين الممتلـئين بـأهوائهم لضـلالهم وغيهم، لأنهم تكـبروا أن يسـتمعوا إليـك، أو يـذعنوا لرسلك.

يا رب.. فاملأ حياتي بألوان هدايتك.. حتى أمتلئ تعظيما لك.. ونور بصيرتي حتى أرى كل شيء منك وبك وإليك.

# الإرادة النافذة

إلهي.. يـا صـاحب الإرادة النافـذة، والمشـيئة القـاهرة، والقضاء المحكم.

لا شريك لك، ولا نظير.. ولا حـاكم معـك، ولا مـدير.. ولا راد لأمــرك، ولا معقب لحكمــك، ولا تُسـأل عن فعلــك، وهم يسألون.

وكيـف تسـأل عن فعلـك، أو يعقب أحـد على حكمـك، وأنت البديع الذي أبـدع كـل شـيء، والحكيم الـذي أحكم كـل شيء، والعليم الذي وسع كل شيء علما؟

يــا رب، فأســألك أن أتحــرك في مجــال إرادتــك الــتي ترضــيك، وأعــوذ بــك أن أتحــرك في مجــال إرادتــك الــتي تسخطك.. وأسألك أن أكون من الذين أردتهم، ورضيت عنهم وأكــرمتهم، وأحببتهم، فكــانوا في كــل محــل تتــنزل فيــه مرضاتك، واجتنبوا كل محل يكون فيه سخطك.

وأعوذ بك يا رب أن أكون من أولئـك المشـركين الـذين تعللوا بإرادتك على اقتحام معاصيك، وقـالوا: { لَـوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } [النحل: 35]، وقالوا: { لَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَـا أَشْـرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَـا مِنْ شَـيْءٍ} [الأنعـام: 148]، وقـد رددت عليهم بقولك: {هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَـا إِنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: 148]

صدقت يا رب.. فما ذاك إلا كـذب منهم وتخـريص.. وإلا فلم يسـعون في أرزاقهم مـع أنهم يعلمونـك أنـك الـرزاق؟.. ولم يســعون في علاج أنفســهم مــع أنهم يعلمــون أنــك الطبيب؟.. ولم يسعون في حفـظ أنفسـهم من المهالـك مـع أنهم يعلمون أنك الحفيظ؟.. لم لم يوكلوا كل ذلك إليـك كمـا أوكلوا أمر الهداية والضلال؟

نعم.. هم لم يشركوا إلا بمشيئتك، وكيف يخرج أحـد من مشيئتك؟

لكن كان في إمكـانهم أن يختـاروا مشـيئة الهدايـة بـدل مشيئة الضلال.. ومشيئة السعادة بدل مشيئة الشقاء.. لكنهم لتخرصهم وكذبهم على أنفسهم، واتبـاعهم لأهـوائهم اختـاروا

المشيئة التي تسخطك.

هم في ذلك مثل ذلك الأستاذ الذي وضع امتحانا لطلبته.. هو يعرف مستوياتهم، ويميز المجتهد منهم من الكسول، ولكنه لعدله بدل أن يحكم لكل واحد منهم بما يعلمه راح يختبرهم، ويترك لهم الفرصة ليختاروا أحد النجدين.. نجد النجاح، أو نجد الرسوب.

فمن اختار منهم نجد النجاح رضي عنه، وقربه، ووهبه من التزكية ما يرفع مستواه، أو يؤهله للوظائف الكريمة.

ومن اختار منهم نجد الرسوب، أو قعد من دون أن يجيب.. فالأستاذ كذلك لا يتدخل في شأنه.. لأنه وإن خالف رضاه، لم يخالف إرادته..

ذلك أنه أراد تمييز الصادقين من تلاميذه من الكاذبين، ولذلك منح الحرية للجميع ليعبروا بمحض إرادتهم، لا بما يملى عليهم.. فلا يمكن لأحد أن يعبر عما تختلج به جوانحه، تحت سيف الإكراه والقهر.. ولذلك لم يخرج الراسبون عن مشيئته، وإن خرجوا عن رضاه.

لذلك ـ يا رب ـ كان الذين يريدون منك أن تتخلى عن مشيئتك وإرادتك حتى تتحقق لهم الحرية، واهمون وكاذبون على أنفسهم.. ذلك أنهم يشعرون بالحرية، ويفرقون بين أعضائهم التي تعمل من دون إرادتهم، وأعضائهم التي لا تتحرك إلا برضاهم ورغبتهم.. ويعلمون أنك لا تحاسبهم إلا على ما كسبت أيديهم، وتحركت به رغباتهم.

يارب.. هم لجهلهم بك.. يتصورون أن كمالك في أن تسلم الشر لإله آخر يديره، وتتمحض أنت للخير المجرد.. ويحصل بينكما الصراع..

ويل لهم، وما أضعف عقولهم. أليس من الحكمة والرحمة واللطف أن يكون كل شيء بيدك.. فأنت الخير المطلق.. وأنت الذي لك الأسماء الحسنى والكمال الأعظم.. وأنت الذي لم ترد الشر ابتداء، وإنما كان الشر نتيجة لتلك النفوس التي أبت إلا أن تختار هذا السبيل.. وأنت بكرمك ولطفك لا ترد من رغب في شيء عن رغبته.

فعندما استكبر إبليس عن السجود لآدم كان في إمكانك أن تفرض عليه سلطتك وتجبره على السجود.. لكنك لم تفعل.. بل تركته لحريته..

بل كنت تريد أن يظهر بذلك المظهـر حـتى يكشـف عن حقيقته التي كانت مملوءة بالكبر والحسد.. ولولا ذلـك الأمـر ما ظهر كبره ولا حسده، ولظل يخدع غيره بعبادته وتقواه.

وهكــذا عنــدما طلب أن يــؤخر ليــوم البعث، تركتــه، وأعطيته الفرصة، وجعلته وسيلة من الوسائل التي تمـيز بهـا الطيب من الخبيث..

لقد صار مثل ذلـك المغنـاطيس الـذي ينقي الـذهب من الشوائب الـتي لا يحـق لهـا أن توضـع مـع المعـادن النفيسـة والحجارة الكريمة.

وهكـذا كـانت مشـيئتك رب في أن تضـع معـالم الهدايـة والضلال، فقد أرسلت الرسل الذين يبينون الحقـائق للنـاس، وتركت في نفس الوقت الفرصة لمن يضلهم، لأنـه لا يتحقـق التمييز إلا بتوفر السـبل الكثـيرة الـتي تجعـل الإنسـان يختـار بمحض إرادته ما تميل إليه نفسه..

وعندما يختـار، لن يخـرج اختيـارك.. ولن ينضـم إلى إلـه الشر كما يقول المشركون.. بل يظل عبدك.. وتظـل إرادتـك نافذة فيه.

لقد ذكـرت ذلـك يـا رب فقلت: { إِنَّ هَـذِهِ تَـذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَـا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيمًـا حَكِيمًـا (30) } [الإنسـان: 29 -ـ 31]، وقلت: { إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرٌ لِلْعَـالَمِينَ (27) لِمَنْ شَـاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَـا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـالَمِينَ ( 29) } [التكوير: 27 - 29]

صــدقت يــا رب.. فهــدايتك أكــرم من أن تتــنزل على المنحرفين والمستكبرين.. أولئك الـذين نصـبت لهم العقبـات التي تحول بينهم وبين الهداية إلا بعد أن يتخلوا عن كبريــائهم وطغيانهم وجبروتهم.

ولذلك كنت المنصرف عنهم قبل انصرافهم عنك.. فأنت الـذي لم تـرد أن يجـاوروك في عـزك، أو يجـاوروا المؤمـنين الطاهرين، وهم متلطخون بأوزار خبثهم.

لــذلك قلت يــا رب عنهم: {سَأَصْــرِفُ عَنْ آيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُـوا بِهَـا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ }

[الأعراف: 146]

فـأنت الـذي صـرفتهم وأضـللتهم.. لأنهم لم يكونـوا أهلا لعزك ولطفك وهدايتك.. ولو كانوا أهلا لذلك لتخلـوا عن تلـك الطباع التي تحول بينهم وبينك.

إن مثلهم يا رب مثل رجل دعا قوما إلى وليمـة، فحضـر الأمراء والعلماء والحكماء، وكـانوا كلهم بأحسـن مظهـر.. ثم جاء بعض الناس بثيـاب قـذرة، تفـوح منهـا الـروائح الكريهـة، وكان لسانه ممتلئا بالفحش والبذاءة.. فهل يمكن لمثـل هـذا أن يشارك في تلك الوليمة؟.. وهل يمكن لأحد من الناس أن يرضى بالجلوس بجانبه؟

لكنه لو ذهب، وتطهر، وغسل ثيابه، وطهر لسـانه، وعـاد إلى الوليمة لم يكن للداعي الكريم أن يرفضه، ولا أن يرده.

وهكذا الأمر يا رب.. فأنت لم ترد أولئك لذواتهم، وكيـف تفعـل ذلـك وأنت الـذي خلقتهم ورزقتهم ووفـرت لهم كـل الحاجات، ولكنك فعلت ذلـك بهم لمـا اختـاروه لأنفسـهم من الكـبر والضـلال.. ولـو أنهم تخلـوا عن ذلـك لكنت أول من يقبلهم، فهـدايتك شـملت كـل شـيء، ورحمتـك وسـعت كـل شيء.

يــا رب.. فاجعــل رضــاي في رضــاك، وســخطي في سـخطك، حـتى لا أتحـرك إلا في وفـق مشـيئتك الـتي تحب، واجعلني أعرفك كما أنت لا كما يقول الجاهلون الذي صـنعوا إلههم بـأهوائهم، وعجنـوه بعقـولهم، وقاسـوه على أنفسـهم، فأنت أعظم من كل شيء، ولا يقاس بك شيء.

# قدس الأقداس

إلهي.. أيها القدوس الذي لا تدركه الأبصار، ولا الأوهـام، ولا الخيال، ولا العقول.

إلهي يا من جل عن الشـبيه والنظـير، فـ {لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]

تعاليت يا رب في قدسك، فلا تعرف إلا بجلالك وكمالـك وعظمتك، ولا يرتد البصر الطـامع في رؤيتـك إلا خاسـئا كليلا حسيرا.

وكيـف يطمـع أحـد في رؤيتـك وأنت الـذي تقـول: { لَا تُدْرِكُـهُ الْأَبْصَـارُ وَهُـوَ يُـدْرِكُ الْأَبْصَـارَ وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِـيرُ } [الأنعام: 103]؟

فتعاليت أن تدركك الأبصار، وكيف تدركك، وهي لا تدرك إلا الأجسام والألوان والأحجـام.. وأنت قـد تعـاليت على ذلـك كله.

فأعوذ بك يا رب أن أقع في حجب الأوهام والكثافة التي وقع فيها المحجوبـون عنـك وعن عظمتـك، فراحـوا يضـعونك في قـوالب الأجسـام، ويفرضـون عليـك مـا يفرضـونه على الأجسام من الحدود والقيود والأغلال.

أعوذ بك يا رب أن أتوهم لك المكان، وكيـف تحتـاج إلى المكان، وأنت خالق المكان؟.. وكيف توصف بالجهـات، وأنت خالق الجهات؟

ويل لهم أولئك الذين أوقعتهم الأوهام في أغلال الجهات والأمكنة.. ألم يقرؤوا قولك، وأنت تصف نفسك: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } [الحديد: 4]؟

ألم يقـرؤوا قولـك، وأنت تصـف معيتـك الدائمـة لكـل شيء: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَـةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِـكَ وَلَا أَكْثَـرَ إِلَّا هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَـا كَـانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7]؟

ألم يقرؤوا قولك، وأنت تصف قربك منهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَـا تُوَسْـوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ

حَبْلِ الْوَرِيدِ [ق 16]، وقولك: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: 85]؟

ألم يقرؤوا قولك، وأنت تذكر تعاليك عن الجهات وقيودها: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ [البقرة: 115]؟

ولم يكتفوا بذلك رب، بل راحوا يصفونك بصفات الأجسام، فيجعلونك صاحب يدين، وساقين، ووجه، وفم، وأضراس، وحقو..

وراحو يفرضون عليك ما يفرضونه على الأجسام من الطول والعرض والحجم والكتلة..

وراحوا يعتبرون أن العرش يثقل على حملته بسببك، وأنه يئط من ثقلك.. وأنك تجلس وتستلقي عليه، وتضع قدميك على الكرسي كما يفعل الملوك.

ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يذكرون أنك تنزل وتصعد، وتجري وتهرول، وأنك تضحك وتبتسم، وأنك تتكلم بالحروف والأصوات مثلما يتكلم عبادك.

ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يصفونك بأنك تلبس الثياب، وتضع التيجان، وتنتعل النعال.. وأنك تدنو من العباد كما يدنوا بعضهم من بعض، وأنك تلامسهم، ويلامسونك.. كما تلامس الأجسام بعضها بعضا.

ولم يكتفوا بذلك.. بل راحوا يعتبرون ما يذكرونه من أوهام وخرافات توحيدا وسنة، وأن خلافهما بدعة وضلالة.

ويل لهم.. وأين عقولهم.. وأين هم من كلماتك المقدسة التي نزهتك وقدستك.. وحذرت من الوقوع فيما وقع فيه المنحرفون عنك من البحث فيما لا تطيقه عقولهم، ولا تدركه أوهامهم ولا خيالهم.

لكنهم رب أعرضوا عنها، وراحوا يؤولونها، ويتبعون المتشابه، فزاغت قلوبهم وعقولهم عن الحقائق، فصوروك بصورة الوثن، وعبدوك كما يعبد المشركون أصنامهم.

أعوذ بك يا رب.. أن أقع في تلك الحجب.. أو أدع لخيالي وعقلي وقياسي أن يتسرب إلى قدس أقداسك.. فأنت لا تعرف إلا بعظمتك وجلالك الذي لا حدود له.

ولا طاقة للعقول إلا بمعرفة أسمائك الحسنى وصفاتك العليا.. فهي البحر الذي نسبح فيه للوصول إليك، والتعرف

عليك.

يــا رب.. فأســألك أن تملأ قلــبي بتنزيهــك وتقديســك وتسبيحك حتى لا تتسرب إلي تلك الأوهام، فأحجب بها عنـك، فلا يعرفك إلا من قدسك، وسبح بحمـدك، وملأ روحـه وكيانـه بتعظيمك.

إلهي.. لقد كان السبب الأكبر في كل مـا حصـل لأولئـك المشـبهين والمجسـمين الـذين ابتعـدوا عنـك إعراضـهم عن كلماتك المقدسة، وعن أنبيائك وأوليائك الـذين جعلتهم هـداة إليك..

فأسألك يا رب أن أتمسك بحبلهم، وأركب سـفينتهم، ولا أسمع لغيرهم.. لأنهم مصدر الحق الأوحـد، وهم الـدعاة إليـك بإذنك، وعلى بصيرة.

فـارزقني ــ يـا رب ــ من المعرفـة مـا رزقتهم، واحفـظ عقلي من الأوهام، وقلبي من الأغيار، فلا يعرفك إلا من تأدب بـآداب العبوديـة، وخلص عقلـه من البحث فيمـا لا يعنيـه، ولا قدرة له عليه، وخلص قلبـه من كـل الأغيـار، فمعرفتـك أجـل من أن تختلط مع الأغيار.

يا رب.. وهب لي كمال تنزيهك وتعظيمك، حتى أسـبحك في كل شيء، ومع كل شيء، فأنت الأكبر والأعظم..

أنت أكبر وأعظم من كل الأوصاف.. وكيف توصف وأنت الذي لا حدود لك؟.. وكيف تقيد بقيـود الكلمـات، وأنت الـذي خلقتها؟

لذلك نستغفرك رب من تقصيرنا في وصفك.. لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

# الغني الحميد

إلهي.. أيها الغني الحميد.

ما أعجب أمر خلقك، فقد رأيتهم قبل أيام يتحدثون عمن يطلقون عليهم أغنى الأغنياء، ويذكرون مراتبهم، وثرواتهم، وكيفية تعاملهم مع أموالهم..

ورأيت مع حديثهم اللعاب وهو يسيل من أفواههم عند ذكر الأموال.. كما شممت روائح الحسد الكريهة تنبعث من قلوبهم عند ذكرها، وكأنهم يرددون ما قاله المغرمون بأموال قارون: {يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: 79]

لقد قلت لهم حينها: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: 80]، لكنهم لم يلتفتوا لي، ولم يسمعوا كلامي، فقد كان الحجاب الذي أسدله حب المال عظيما، منع آذان قلوبهم من أن تعي ما أقول، ولا أن تفهم ما أعني..

وبعد أن فارقتهم يا رب رحت أفكر في تلك العقول التي تنبهر لذلك الغنى المجازي المحدود، وتنسى غناك المطلق الذي لا حدود له.

وهل يمكن أن يقارن غنك بغناهم أو غنى أحد من خلقك.. فإن كان أولئك الذين انبهروا بغناهم يملكون ملايين المثاقيل من الذهب، ومثلها من الفضة، ومثلها من اللآلي، فأنت تملكهم، وتملك ما يملكون، ويمكنك في لمح البصر، أو ما دون ذلك أن تجعل الكون كله مصاغا من الذهب الخالص.. وقد قلت في كتابك الكريم: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف: 33]

فالذهب والحديد والتراب عندك سواء.. وقد وصفت أمرك فقلت: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس: 82]

ولذلك فإن المستغني بك، والقريب منك أغنى من كل أولئك الذين انبهروا بهم، وكيف لا يستغني، وأنت الغني المغني الذي لا يرد من لجأ إليه، ولا يفتقر من استغنى به.

ولكن المقربين منك، لا يهتمون بمثل تلك الأمور، لأنه يكفيهم أنت.. ويكفيهم رضاك.. ويكفيهم أن يقفوا بين يديك يناجونك، ويسمعون كلماتك التي تخاطبهم بها، فهي أغلى عندهم من كل جواهر الدنيا.

لقد عدت يا رب، وتأملت في أحوال أولئك الذين وصفوهم بالغنى، فوجدتهم مع تلك الثروات فقر مطبق، ومن كل الجهات.. فهم كغيرهم مصاديق لقولك: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]

لقد وجدت الأمراض تنتابهم، وتنهش أجسادهم مثل سائر الناس.. ورأيتهم يعذبون بها، ويتألمون، من غير أن تغني عنهم ثروتهم شيئا.

ورأيت الغضب ينتابهم، ويملأ حياتهم بالكدر.. ورأيت الضيق والضنك في ملامح وجوههم من غير أن تستطيع كل تلك الثروات إزالته عنهم.

ورأيت الشيب يسرع إلى رؤوسهم مثل سائر الناس.. ثم ما أسرع ما تمر الأيام لتضعهم مع العجزة والشيوخ الذين بلغوا أرذل العمر من غير أن تفلح أموالهم في ردهم إلى شبابهم وقوتهم.

ورأيت أنه مع كون موائدهم ممتلئة بصنوف الطعام، إلا أن الشبع سرعان ما يدب إليهم، ويمنعهم من الاستمتاع بكل ما وضع في تلك الموائد.. بل رأيت أنهم لإلفهم لتلك الصنوف، صار مذاقها عندهم لا يختلف عن مذاق الخبز في فم الفقير.

لذلك يا رب.. شعرت بفقرهم وفاقتهم الشديدة.. وعلمت أنك أنت الغني الوحيد، وما عداك فقير..

فأنت الذي لك الوجود الأصلي الذي لم تستفده من أي جهة.. وكل من عداك مفتقر في وجوده إليك، ولولا أنت لظل في ظلمات العدم، لم يحظ بأن يشم أريج عطر الوجود.

وأنت الحي الذي يسمع ويبصر ويعلم بكل شيء من غير أن يفتقر إلى تلك الآلات والوسائل والأدوات التي نستعملها لذلك.. ونحن الفقراء الذين نحتاج إلى الوسائل والأدوات.. والتي قد يصيبها العطب، فيتحول بصرنا عمى، وسمعنا صمما، وعلمنا جهلا.

وأين سمعنا من سمعك، وأين بصرنا من بصـرك.. وأنت يستوي عندك كل شيء، فلا فرق عندك بين الذرة والمجـرة، وبين الصغير والكبير.. بل الكل عندك سواء.

وأنت يـا رب الغـني بـذاتك عن أن يتعلـق بـك الزمـان والمكان.. فكلاهما من خلقك، ونحن يـا رب المقيـدون بقيـود الزمان والمكان..

وأنت يـا رب الغـني عن الأحـداث والتغـيرات.. ونحن يـا رب عرضة لها، نفرح لما يفرح منها، ونحزن لما يحزن..

يا رب لا يمكنني أن أعدد حقائق غناك، وكيف أعد مـا لا يمكن عـده؟.. وكيـف أحصـي أملاك من يملـك السـموات والأرض، وكل شيء.. بل إن السموات والأرض ليسـتا سـوى دينار من كنوز غناك الذي لا حدود له..

يـا رب.. فـأغنني بالافتقـار إليـك عن سـواك، واجعلـني أنظر إلى غناك، وأكتفي به، حتى يـزول من قلـبي كـل تعلـق بأولئك الفقراء الذين توهموا أنفسهم أغنياء.. وحتى يكون كل توجهي إليك، لا إلى تلك اللعب التي يملكها أولئك الواهمـون، والتي سرعان ما تذهب عنهم، أو يذهبون عنها.

يا رب.. لقد قلت في كلماتـك المقدسـة: { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَـأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَـوْمٍ آخَـرِينَ } [الأنعـام: 133]، وقلت: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ ( 15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْـقٍ جَدِيـدٍ (16) وَمَـا ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) } [فاطر: 15 - 18]

وإني أعوذ بـك يـا رب أن تسـتبدل بي أحـدا من خلقـك، فأنا عبـدك الفقـير الـذليل الحقـير الـذي لا يمكنـه أن يتنفس الهـواء، أو يشـرب المـاء، أو يأكـل الطعـام، أو يسـير في الأسـواق، أو تتقلب بـه الـدنيا، دون أن تمـده أنت بعطائـك ورزقك وجودك وفضلك.

يا رب فاجعلني أشعر بفضلك علي في كل ذلـك.. حـتى أعلم أنه لا خير إلا منك، ولا فضـل إلا بـك.. وأنـك أنت الغـني الحميد.

يا رب أعوذ بك أن أكون كأولئك المغفلين الذين توهمـوا أنهم ينفعونك بعبادتهم، أو يضرونك إن تركوهـا، فـأنت يـا رب الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنياً

عن غيرك؟

يـا رب لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تـذكر غنـاك وفقرنا، وتدعونا إلى مد أيدينا إليـك، لا إلى الأشـياء الـتي هي من صـــنعك: (يـــا عبـــادي كلكم جـــائع، إلا من أطعمتـــه، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عـار، إلا من كسـوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليـل والنهـار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاسـتغفروني أغفـر لكم، يـا عبـادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعـوني، يـا عبـادي لـو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم كـانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلـك في ملكي شـيئا، يـا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجـر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يـا عبـادي لـو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم قـاموا في صـعيد واحـد فسألوني فأعطيت كـل إنسـان مسـألته، مـا نقص ذلـك ممـا عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحـر، يـا عبـادي إنمـا هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياهـا، فمن وجـد خـيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)[1]

فأسـألك يـا رب أن تملأ قلـبي بهـذه الحقـائق النورانيـة الـتي يـدل عليهـا كـل شـيء، حـتى أعيش في رحـاب غنـاك المطلـق، غنيـا عن أن أمـد يـدي لأولئـك الممتلـئين بـالفقر والحاجة والضعف.

وأعوذ بك يا رب أن تختبرني بما لا أطيق من الدنيا التي قد تصرفني عنك.. فاصرف لي منها ما أحتاجـه، ومـا يغنيـني عن مد يدي لخلقك، واصرف عني ما يؤدي إلى البطر والكبر والغرور.. فأنت تعلم ضعفي، فـاحفظني من كـل مـا يبعـدني عنك، أو يصرفني عن بابك.. فبابك عندي هو الغـنى المطلـق الذي لا أحتاج معه لغيره.

---

1() صحيح مسلم 4/1994 ح(2577)

# الحقائق والرموز

إلهي.. أيها القدوس المتعالي على كل شيء.. حتى عن تعريفنا به، ووصفنا له.

أعوذ بك من الجهل الذي يجعلني عبدا رقيقا للألفاظ، فأجعل منها شبكة لاصطياد الحقائق، فالحقائق أعظم من أن تصطاد بالألفاظ.. والحقائق أعظم من أن تعبر عنها تلك الرموز التي لم توضع لأجلها، وإنما وضعت لغيرها.

أعوذ بك يا رب أن يحصل لي ما حصل لأولئك الذين راحوا يعرفونك من خلال الألفاظ، فانتزعوا من عظمتك كل معاني القداسة، وشبهوك بخلقك، وجعلوا منك وثنا، لا إلها عظيما قدوسا متعاليا عن كل الأوهام والخيالات.

يا رب لقد راحوا لغفلتهم يذكرون أن لك يدين.. وأن فيهما أصابع.. وأنك تمسك بهما الأشياء.. وذلك عندما تركوا الحقائق الواردة في ذكرك لليدين في كلماتك المقدسة، وتشبثوا بالألفاظ..

لقد قرأوا قولك في الرد على اليهود الذين اتهموك بالبخل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[المائدة: 64]، وبدل أن يفهموا من الآية الكريمة الغرض الذي وردت من أجله، وهو نفي البخل عنك، راحوا يذكرون أنها تثبت لك صفة ذاتية يُطلق عليها اليد.. وأنها اليد الحقيقية.. وليس من فرق بين أيدينا ويدك إلا أننا نعرف أيدينا وشكلها، ولا نعرف شكل يديك.. تعاليت وتقدست عما يقولون علوا كبيرا..

ولو أنهم قرأوا معها قولك: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء: 29]، لعلموا أنك لا تنهاهم عن وضع أيديهم في أعناقهم، ولا بسطها، وإنما تنهاهم عن البخل والتبذير.. ولذلك لم يقل أحد من الفقهاء بتحريم قبض اليد أو بسطها.

وهكذا راحوا يفهمون قولك لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]، على أن لك يدان حقيقيتان، وأنك مددتهما إلى طينة آدم، لتسويها، كما نسوي نحن الطين بأيدينا..

ويلهم أين عقولهم.. وهل يمكن لقداستك أن تحتاج إلى هذا، وأنت الذي لا تحتاج لأي وسيلة لتنفيذ أي مطلب مهما عز وعلا.. لقد قلت في كلماتك المقدسة تذكر ذلك: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82]، وقلت:{وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50]

ويلهم.. ألم يقرؤوا قولك، وأنت تصف أعمال عبادك: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: 182]، فهذه الآية الكريمة واضحة في الدلالة على الأفعال مهما اختلف نوعها، وليس المراد منها حصر الحساب والعقاب على ما عملت الأيدي فقط.. بل يدخل فيها ما عملت الألسن والأرجل وكل الجوارح.

وهكذا يا رب راحوا يذكرون أنك تحتاج لعينين لتبصر بهما، مثلما يحتاج البشر إلى ذلك.. وقد جرهم لذلك انسياقهم وراء الكلمات والرموز، لا المعاني والحقائق، فقد قرأوا قولك: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر 14] وقولك: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود 37]، وقولك: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور 48]، وبدل أن يفهموا منها جميعا ما يدل على عنايتك بعبادك الصالحين، وتكفلك بحاجاتهم، وحفظك لهم.. راحوا يجسمونك، ويذكرون أن لك عينين، وليس من فرق بينهما، وبين عبادك إلا في الشكل والكيفية.

وهكذا راحوا يفهمون من قولك: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67] الرموز دون الحقائق؛ فأثبتوا لك يدين تقبض بهما الأشياء.. مثلما يقبض الخلق الأشياء بأيديهم، مع أن دلالات كلماتك المقدسة واضحة في خطابهم بما يفهمون، وباللغة التي تطيقها عقولهم.. وليس المراد منها الحقيقة.

فأنت قد ضربت لهم مثلا بكون كل شيء في قبضتك، وتحت أمرك، وأنه لا يعجزك شيء، لكنهم تركوا الحقائق المرتبط بها، وراحوا يتشبثون بالألفاظ.. مع أنهم هم أنفسهم يستعملون أمثال هذه التعابير، ولا يريدون بها الحقائق.

فهم يقولون كل حين: الأمر أصبح بأيدينا، وفي قبضتنا.. مع أنهم لا يريدون من هذه الألفاظ ظواهرها، وإنما يريدون الحقائق المرتبطة بها..

وهكذا يقولون: فلان بين يـدي، ونحن بين أيـديكم.. وهم لا يريدون، لا الأيدي، ولا البينية، وإنما المعـاني المتعلقـة بهـا، والدالة عليها.

لكنهم إن رجعوا إلى كلماتك المقدسة، راحـوا يتشـبثون بـالحروف، وينسـون المعـاني، ويغفلـون عنهـا.. فيشـوهونك ويشبهونك ويجسمونك.

ولو أنهم عادوا لكلماتك المقدسة نفسـها، وطبقـوا هـذه المقاييس التي طبقوها على تلك الآيات الكريمـة، لعلمـوا أن مرادك أعظم من أن يكون تلك الظواهر الـتي فهموهـا، فقـد قلت في كلماتك المقدسـة عنـد ذكـرك للمنـافقين: { نَسُـوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة: 67]، فهل يمكن أن يجرؤوا أحـد على وصفك بالنسـيان.. وهـل يسـتقيم النسـيان مـع العلم.. وهـل يستقيم النسيان مع العظمة؟

وهكـذا قلت عنهم:{إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ يُخَـادِعُونَ اللَّهَ وَهُـوَ خَـادِعُهُمْ} [النسـاء: 142]، وهـل يسـتقيم مـع عظمتـك المطلقة، ورحمتك الواسعة، أن تكـون مخادعـا.. فالخـداع لا يكـون إلا للضـعفاء الـذين تعـوزهم القـدرة، فيلجـؤون إلى الحيلة.

وهكذا ذكر نبيك ﷺ رحمتك بعبادك، وعنايتك بهم، وشـبه ذلك باعتنـاء الوالـد بعيالـه، فقـال: (الخلـق كلهم عيـال اللـه، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)[1]، فهل يمكن لأحد من الناس أن يفهم من هذا الحديث ظـاهره، فينسـب لـك الولـد والعيال؟

فكل هذه الألفاظ لم تُـرد منهـا يـا رب ظواهرهـا، وإنمـا أردت منها المعاني التي تقف خلفها، وهي معان متناسبة مـع جلالك وجمالك وكمالك.. ومتناسبة مع اللغة التي خاطبت بها خلقك، والتي يستعملون فيها نفس تلك التعابير.

وليتهم اكتفوا بذلك يـا رب.. بـل راحت شـياطين الإنس والجن تزودهم بالكثير من الروايات التي لم تـزد عقـولهم إلا ارتكاسا وتشبيها وتجسيما ووهما.

لقد قال أحدهم يصف عظمتك: (يطـوي اللـه عـز وجـل السموات السبع بمـا فيهن من الخلائـق والأرضـين بمـا فيهن

---

1()المعجم الكبير للطبراني 10/86 ح(10033)

من الخلائق يطوي كل ذلك بيمينه فلاُ يرى من عند الإبهام شيء ولا يرى من عند الخنصر شيء فيكون ذلك كله في كفه بمنزلة خردلة)(1)

وقال آخر متهكما من الذين ينزهونك، ويقدسونك: (إذا كانت السموات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا، والأرضون السبع في يده الأخرى كذلك فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلاً عن أن يقبض بهما شيئاً، فلا يد عند المعطلة ولا قبض في الحقيقة وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له، وللجهمية والمعطلة من هذا الذم أوفر نصيب)(2)

وقال آخر يصفك بالملل: (جاء في الحديث عن النبي ﷺ قوله: (فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتى تملوا)(3)، فمن العلماء من قال: إنَّ هذا دليل على إثبات الملل لله، لكن ؛ ملل الله ليس كملل المخلوق ؛ إذ إنَّ ملل المخلوق نقص ؛ لأنه يدل على سأمه وضجره من هذا الشيء، أما ملل الله ؛ فهو كمال وليس فيه نقص، ويجري هذا كسائر الصفات التي نثبتها لله على وجه الكمال وإن كانت في حق المخلوق ليست كمالاً)(4)

وراح يصفك بالهرولة، فقال: (صفة الهرولة ثابتة لله تعالى كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم، فذكر الحديث وفيه: (وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)، وهذه الهرولة صفة من صفات أفعاله التي يجب علينا الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل، لأنه أخبر بها عن نفسه وهو أعلم بنفسه فوجب علينا قبولها بدون تكييف)(5)

يا رب.. فأسألك أن تعيذني من الجهل الذي يبعدني عنك، وأن تطهر عقلي من كثافة التشبيه والتجسيم، وأن تجعلني ألجأ إليك كل حين، فأنت العاصم الذي يعصم العقول من أن تقع في هذه الانتكسات.

---

1() العظمة 2/445(136)

2() الصواعق المرسلة 4/1364

3() رواه البخاري (43). ومسلم (785).

4() مجموعة دروس وفتاوى الحرم (1/152).

5() فتاوى ابن عثيمين -العقيدة-1/380.

وأعوذ بك يا رب أن أترك المحكم الواضح الظاهر الـذي اتفقت فيه العقول مع كلماتك المقدسة، وأتشـبث بالمتشـابه الذي صار فتنة للمحجوبين بالرموز عن الحقائق.

لقد ذكرت ذلك يا رب، ونبهتنا إليه، وحذرتنا منه، فقلت: {هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَـا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7]

فاجعلني يا رب من الراسخين في العلم الـذين يمـيزون بين الحقائق والألفـاظ، ويعرفـون أن الألفـاظ أضـعف من أن تعبر عنك، وأنك أعظم من أن توضع في تلـك القـوالب الـتي لم يضعها البشر إلا للتعبير عن أنفسهم وحاجاتهم.

# المبدئ المعيد

إلهي.. أيها المبدئ المعيد.. الفعل لما يريد.

أسألك كما بـدأتني بفضـلك، وغمرتـني في بـدايتي بكـل ألوان لطفك وهدايتك وجودك.. أن تعيدني إليك، وأنا بفطرتي النقية التي خلقتها، وسويتها، ورضيتها، مـزودا بكـل مـا أتحت لي من دروس الهداية التي غذيت بها روحي ونفســي وعقلي وقلبي وكل لطائفي.

وأعـوذ بـك يـا رب أن يصـير حـالي كحـال أولئـك الـذين انطمسـت بصـائرهم الـتي زودتهم بهـا، بعـد أن رغبـوا عنـك، وتحولوا إلى أعـدائك.. وكـان أول مـا حصـل لهم ذلـك العمى الذي وصفته بقولك: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَــنْكًا وَنَحْشُــرُهُ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ أَعْمَى (124) قَــالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَـا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 124ـ 126]

فأعوذ بك يا رب أن أنسى آياتك، أو أعرض عن رسـلك، أو أتمرد عن تعاليمك، أو أهجر كتابـك، أو أعـادي أوليـاءك، أو أوالي أعـداءك، أو أشـيح بـوجهي عن مواعـظ الملـك الـذي قرنته بي، وجعلته سبيلا من سبلي إليك.

يا رب، فاحفظ لي بصيرتي حتى استردها عنـد الإعـادة، وفي ذلـك العـالم، وفي تلـك النشـأة الجديـدة، وهي ممتلئـة جمـالا ونـورا وصـفاء وطهـرا.. حـتى أسـتمد من أنوارهـا مـا يحفظني في تلك الظلمات، ويجعلني أمر على السـراط كمـا تمر الأنوار، لا يصـيبها الخـوف، ولا ينتابهـا الحـزن، ولا تشـعر بدقته، ولا بحدته، ولا يهولها ما يقف أسفله وعلى جوانبـه من الأهوال.

يا رب.. وأسألك أن تجعلني من الذي عصمتهم من ذلـك الفزع الذي يعتري الخلائق عندما تأمر بنهايـة النشـأة الأولى، وبداية النشأة الثانية.. عندما يُنفخ في الصور، ويفـزع من في السـموات ومن في الأرض إلا من شـئت.. فـاجعلني ممن شئت.. فأنت أكرم الأكرمين.

يـا رب.. وإن وزنتـني ووزنت أعمـالي في ذلـك العـالم، وتلـك النشـأة، فاجعـل مـيزاني مـيزان من أحببتهم ورضـيت

عنهم، وملأت قلوبهم وحقائقهم بكل قيم النبل والطهارة، حتى إذا خرجت نتيجة ذلك الميزان صحت كما صاح ذلك المؤمن الذي وصفته في كتابك، ووصفت فرحه واستبشاره وقوله: { هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} [الحاقة: 19، 20]

أو كما وصفت ذلك الآخر الذي أدخلته جنتك، وفيها تذكر صديقه الذي كان يستعمله الشيطان لغوايته، لكنه اجتنبه، واتبع رسلك وأولياءك، وضحى بكل شيء في سبيلك، وبعد أن اطلع على حاله صاح فرحا وسرورا بنعمتك عليه: { أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات: 58 - 61]

يا رب.. وإن أدخلتني دار القرار، فاجعلني مع أوليائك الذين أحببتهم ووالتيهم وضحيت بكل شيء في سبيل نصرتهم.. فقد قلت في كلماتك المقدسة: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69]، وقال لنا نبيك مبشرا: (المرء مع من أحب)[1]

يا رب.. وأعوذ بك أن تعيدني في زمرة أعدائك، فأنا، وإن قصرت في حقك، لكن قلبي لم يكن معهم، ولا مواليا لهم، بل كان مع أوليائك، سلم لمن سالموا، وحرب لمن حاربوا.

يا رب.. كلما تذكرت اسمك [المبدئ المعيد] أشعر بسرور عظيم يهزني إليك.. ويرفع عني كل عن تلك الهموم التي أراها، وأعيشها، لأني أعلم أن هذه مجرد بداية، وأن النهاية أجمل بكثير.

فكل أولئك المظلومين المحرومين المحتقرين الذين أراهم، وأتألم لهم، ليست تلك نهايتهم، ولا نهاية قصتهم.

بل ما أراه منها ليس سوى البداية فقط، أما النهاية فهي أجمل بكثير؛ فأولئك المضطهدين سيجلسون في يوم من الأيام على أرائك السعداء، ومنابر النور، مسرورين يشاهدون أولئك الذين ظلموهم واحتقروهم، وهم يلقون

---

1() رواه أحمد 3/ 159 (12652) وأبو داود 5127 .. وغيرهما..

جرائر أعمالهم التي لم يحاكموا عليها في بدايتهم، والتي ظنوا أنهم لن يحاكموا عليها أبدا، غافلين عن عدلك المطلق الذي أقمت عليه كل شيء.

لقد قلت في كلماتك المقدسة تصف ذلك الموقف لتملأ قلوب المستضعفين راحة وسعادة وطمأنينة: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)} [المطففين: 34 - 36]

وقلت تذكر أولئك الظلمة الذين حفروا الأخاديد للمؤمنين، وملأوها حطبا ونارا، ثم ألقوهم فيها، وهم يتوهمون أنهم يلقونهم في النار، بينما لم يكونوا في حقيقة الأمر يلقونهم إلا في جنتك وفضلك: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: 4 - 11]

ثم ذكرت البطش الشديد الذي ينتظر أولئك المجرمين في دار الإعادة، فقلت: { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [البروج: 12 - 16]

يا رب.. فأسألك أن أنجح في كل الاختبارات التي تختبرني بها في دار بدايتي، حتى إذا ما أعدتني إليك كنت محتفظا بإنسانيتي، لأصعد بها في معارج الكمال التي هيأتها لي، ولأرى من أنوار ملكوتك ما تمتلئ به بصيرتي إيمان وتحقيقا ورقيا.

# الحكم العدل

إلهي.. أيها الحكم العـدل.. صـاحب الملـك والملكـوت.. والقوة والجبروت.. والموازين الدقيقة.. والقدرة النافذة.

عنـدما أنظـر إلى عـالم الآفـاق، فـأرى الكـواكب، وهي تسير في مساراتها الدقيقة بانتظام عجيب، ولملايير السنين، من غــير أن يصــطدم بعضــها ببعض، أو يطغى بعضــها على بعض.

وعندما أستمع إلى ما يقوله الخـبراء حـول عـالم الـذرة الدقيق، والأكوان المصـغرة الـتي صـنعتها بلطفـك وحكمتـك، والــتي لا تقــل في إبــداعها عن عــالم الكــواكب والنجــوم والمجرات.

وعنــدما أنظــر إلى عــالم الحيــاة وأرى النمــل والنحــل والحشرات، وهي منتظمة في قراها ومدنها، يـؤدي كـل منهـا وظائفه بدقة وإحكام في مجتمعات ممتلئة بالرقي والتحضر.

وعنـدما أنظـر إلى عـالم النفس، ذلـك العـالم المملـوء بعجــائب الــروح والمــادة، والغيب والشــهادة، والأحاســيس والمشاعر..

عندما أنظر إلى كل ذلك وغـيره، أمتلئ إعجابـا بقـدرتك البـاهرة، وموازينــك الدقيقــة، وعلومــك الــتي لا حــدود لهــا، ولطفك الذي لا نهاية لجماله.

بعـد تلـك الرحلـة الـتي أرى فيهـا كـل شـيء مسـتقرا منتظمـا ممتلئـا بالجمـال والكمـال والعـدل، أنـزل إلى تلـك العوالم التي أذنت لنا فيها ببعض الحركة، حتى نؤدي وظـائف الاستخلاف التي امتحنتنا بها، لترفعنا، وتمنحنا من الكمـال مـا هو متاح لنا.

عندما أنزل إلى هذه العوالم أصاب بالصدمة.. فــالحرب والصـراع والتنـافس على حجـارة الأرض ومعادنهـا وسـوائلها وهوائها يقضي على كل شيء جميل، ويجعل الحياة البشــرية كابوسا ثقيلا.

وعندما أنظـر إلى أولئـك الـذين يجلسـون على عـروش السـلطة، وأرى فيهم فرعــون والنمــرود ونــيرون وهتلــر وتـرامب.. وكـل أولئـك المجـرمين الـذين ملأوا الأرض خرابـا

ودمارا، أمتلئ بالألم، لأن البشر تركوك، وراحوا إلى أهـوائهم يحكمونها من دونك.

ولو أنهم علموا أنك أنت الحكم العدل، كما أنـك الخـالق الـرازق.. لجـاءوا إليـك يطلبـون منـك أن تكـون الحكم بينهم مثلما كنت الحكم في عوالم الآفاق والحياة والأنفس.

ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدوا كرمك الذي تجلى في عـالم الخلق، يتجلى في عالم الأمر.. والذي تجلى في عالم الكـون يتجلى في عـالم التشـريع؛ فيسـتحيل على الـذي خلـق كـل شيء ألا يكون قادرا على تسـييره.. ويسـتحيل على من دبـر أمور الحشرات والحيوانات والذرات أن يعجز عن تدبير أمـور البشر.

ولـو أنهم تخلـوا عن كبريـائهم، وراحـوا يدرسـون سـيرة الأنبيـاء والمرسـلين.. لعلمـوا أنهم لم يتحملـوا كـل تلـك التضحيات لمجرد التعريف بك، وبكيفية عبادتك، وإنمـا جـاءوا مع ذلك ليعرفوهم بتلك القوانين الـتي تحكمهم، والقيم الـتي تصلح لهم، والتي تحميهم من نفوسهم، ومن تغيير الشياطين لفطرتهم.

ولـو أنهم تواضـعوا، وراحـوا يقـرؤون كلماتـك المقدسـة الممتلئة بالإعجاز، لوجـدوا فيهـا كـل مـا يبحثـون عنـه.. فكـل شـرائع العدالـة والرحمـة واللطـف مبثوثـة فيهـا، بمنطوقهـا ومفهومها.

لكنهم حجبـوا بأولئـك الجبـابرة الـذين حكمـوا باسـمك، وتسلطوا على عبادك بالشريعة التي كذبوا على الخلق حينما أوهموهم أنها شريعتك.

ولـو أنهم تواضـعوا، وراحـوا إلى البيـان النبـوي الـذي أرفقتـه مـع تنزيلـك، لعلمـوا أن رسـول اللـه ﷺ أخـبر أن السلطان والقرآن سيفترقان.. وأن كل الحكام الـذين سـيمر عليهم التـاريخ لن يحكمـوا بشـريعتك، وإنمـا سـيحكمون بأهوائهم وأسمائهم وعشـائرهم.. وإلا فـإن أسـماءهم وحـدها تـدل عليهـا.. فهي أحكـام أمويـة أو عباسـية أو عثمانيـة أو سعودية.. وليست أحكاما إلهية ربانية نبوية.

إلهي.. هم يتوهمون أن أحكامك بينهم قاصرة على تلـك الحـدود الـتي شـرعتها، أو العقوبـات الـتي سـلطتها على المجـرمين والخونـة والظـالمين.. ولم يعلمـوا أن شـريعتك

وأحكامك أعمق وأعظم، لأنها تبدأ بتربية النفس وتهذيبها، وتنتهي بذلك المجتمع الفاضل الممتلئ بكل قيم الرحمة واللطف والعدالة.

لقد جربوا أن يقيموا لأنفسهم دولا ودويلات وأنظمة بعيدة عنك، فتحققت لهم بعض مظاهر العدالة، فتوهموا أنه يمكنهم أن يقيموا حياتهم بمعزل عنك، وقد وهموا، فتلك العدالة التي يرونها ليست سوى شباك للشيطان يصطادهم بها.

فبتلك العدالة انتكست أخلاقهم، وظهرت بينهم كل أصناف الشذوذ والإباحية والرذيلة، وتحولوا معها إلى عوالم غريبة، لا هي من عالم الإنسان، ولا هي من عالم الحيوان.. ونجح الشيطان في تغيير خلقتهم وجبلتهم وفطرتهم.

إلهي.. ما حصل لهم ذلك كله إلا بتمردهم عليك، وفرحهم بعلومهم، وتوهمهم أنهم يمكن أن يستغنوا عنك بذلك البصيص من نور العقل الذي وهبتهم.. ولو أنهم استعملوه حق استعماله، لاهتدوا به إليك، ولنالوا من أشعة فضلك ما يحميهم من تلك الظلمات التي أوقعتهم فيها نفوسهم الأمارة، وشياطينهم المتمردة.

إلهي.. فهب لي جميل التسليم لك حتى أكون كنبيك إبراهيم.. ذلك الذي طلبت منه في عالم الرؤيا لا في عالم اليقظة أن يذبح ابنه، فأسرع إلى ذلك، لا يجادلك، ولا يماريك، ولا يعقب عليك.. لأنه يعلم أن رحمتك التي وهبته إياه هي نفسها التي طلبت منه ذلك.

وهب لي ــ إلهي ــ ما وهبته لإسماعيل.. ذلك الفتى الحليم الذي تقبل أمرك، وسلم له، وطلب من أبيه أن ينفذه بكل دقة.. ولم يتهرب، ولم يجادل، ولم يدخل ذلك البصيص الضئيل من العقل الذي يعقل عن الحقيقة.

إلهي.. أعوذ بك أن أتمرد على أوامرك، أو أدخل أهوائي في شرائعك.. فأنت أعلم بمن خلقت، وأنت الحكم العدل، وأنت اللطيف الخبير.

إلهي، وأعوذ بك أن يكون تسليمي لحكمك تسليم المقهورين المجبورين المكرهين، فأنت أكرم من أن تقبل مثل هذا التسليم..

وأســألك بدلــه أن يكــون تســليمي لــك ولشــريعتك وحاكميتك تسليم المحبين الصادقين المخلصين.

وكيف لا يكـون تسـليمي لـك مثـل هـذا التسـليم.. وكـل كياني ساجد لك، خاضع لأمرك..

وهــل يمكن أن أكــون أدنى همــة من ذلــك الــذي قــال لمحبوبته:

لو أرسلتْ، يوماً، بُثينةُ تبتغي يميني، ولو عزّت عليّ يميني

لأعطيتها ما جاءَ يبغي رسولها، وقلتُ لها بعد اليمين: سليني

إلهي.. وأعوذ بك أن أدخل هواي في شـريعتك، أو أقـدم عقلي على ذلك العقل المقدس الذي وهبته لنبيك، وأنزلته لنا في كتابــك.. فــأنت الأعلم والأحكم، وأنت الأدرى أين تضــع شريعتك..

فأسألك يا رب أن أكون كذلك الذي قال:

أترك ما أهوى لما قد هويته... فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

فأسألك يا رب، وأنت الذي تملك نفسي، وتملك رضــاها وسخطها، أن تجعلني ـ كما أعبدك بالذكر والسـجود والصـلاة والقـراءة ــ أعبـدك في السياسـة والاقتصـاد والفن والثقافـة وكل شؤون الحياة.. فلا خير في شأن تكون أنت بعيدا عنه.

فاجعل يا رب سياسـتي واقتصـادي وفـني وكـل شـؤون حياتي تابعة لمرضاتك، حتى أتحقق بما أمرتنا أن نقوله: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْـلِمِينَ } [الأنعـام: 162، 163]

## الواحد الأحد

إلهي.. أيها الواحد الأحد.. الفرد الصمد.. الـذي ليس لـه نظير ولا ند.. ولم يكن له كفوا أحد.

مهمـا عظمت صـفاتك وكملت وضـاقت العبـارات عن التعبـير عنهـا إلا أن أعظمهـا وأكملهـا وأجملهـا وحـدانيتك وأحديتك.. فأنت الواحد الأحد الذي لا يعتريـه التعـدد من كـل الوجوه، وبكل المعاني، وفي كل الأحوال.

وكـل من ادعى معرفتـك، وادعى معهـا تعـددك، أو تركيبك، أو وجود من يشبهك، أو وجود مـا ينـاظرك، أو يكـون معك ندا، أو يكون معك مـدبرا، أو يكـون معـك حاكمـا.. فقـد جهلـك.. فأسـاس معرفتـك وحـدانيتك، وأسـاس كـل ضـلالة الإشراك بك.

فلولا وحـدانيتك ــ رب ــ مـا كملت صـفاتك، ولا تـنزهت ذاتك، وكيـف تكمـل صـفاتك، وهنـاك من ينازعـك إرادتـك إذا أردت؛ فيختـار عكس اختيـارك.. وبـذلك يجعلـك مكرهـا.. أو يختار مثـل اختيـارك، فيكـون لـك ــ أو تكـون لـه ــ تابعـا.. أو ينازعـك قـدرتك، فيجعلـك عـاجزا.. أو يخـالف مـا دلـك عليـه علمك، فيجعلك جاهلا.. أو يخالف رحمتك فيجعلك قاسـيا.. أو يخالف عدلك، فيجعلك جائرا.

وهكـذا يـا رب لن تبقى صـفة من صـفات كمالـك، إلا وأفسدها التعدد.. فـالتفرد والوحدانيـة أسـاس الكمـال، ومن كان متعددا كان عرضة للفساد والانحلال.

ولهذا كانت وحدانيتك ـ رب ـ أساسا للسلام والطمأنينـة والسـعادة الـتي يشـعر بهـا المؤمنـون الموحـدون.. وكيـف لا يشعرون بهـا، وهم يـرون صـراع الأقطـاب والنظـراء، وغلبـة بعضهم على بعض، وتسلط بعضهم على بعض، وقهر بعضـهم لبعض.. وتحـول الحيـاة بسـبب ذلـك كلـه إلى مفـازة للقتـل والدمار.

فلـولا وحـدانيتك ــ رب ــ مـا رأينـا الأقمـار والكـواكب والنجوم والمجرات والذرات، وهي تسير بدقـة في مسـاراتها المحـددة لهـا، لتجعـل من الكـون جميعـا لوحـة فنيـة بديعـة الجمـال.. وهـل يمكن لسـفينة يتنازعهـا ربانـان أن تصـل إلى

المرسى؟.. وهل يمكن لكون يتنازعه ربان أن يسير بانتظام ودقة؟

ولولا وحدانيتك رب ما رأينا ذلك التكامل في الموجودات.. ولا ذلك التناسق بينها.. ولا تلك الخدمات التي يقدمها بعضها لبعض، فهي تسير في دورة منتظمة، وبمقاييس دقيقة لا يصيبها الشذوذ، ولا ينحرف بها الصراع.

فويل لأولئك الذين دنسوا عقولهم وقلوبهم بالإشراك بك.. فملأوها بالأسماء التي لا مسميات لها، والتي قلت فيها في كلماتك المقدسة توبخهم بسببها: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: 23]

يا رب.. وكما هديتني إلى جنان توحيدك، وملأت قلبي بتعظيمك، وحفظت عقلي من أن تتسرب إليه أوهام الشرك بك.. فاجعلني أوحد قلبي لك، حتى لا يكون فيه غيرك، وحتى تكون أنت وحدك ملاذي وملجئي وطلبتي وغايتي.. وحتى لا يتربع على عرش قلبي حب غير حبك، أو تسليم غير التسليم لك، أو ذلة لغير جمالك، أو سكون غير السكون لك.

يا رب.. أنت تعلم أني ما أحببت إلا من أمرتني بحبهم، ولم أعظم سوى من أمرتني بتعظيمهم، ولم أسكن لغير من أمرتني بالسكون إليهم..

ولذلك فإن حبي وتعظيمي وسكوني لهم لم يكن سوى حبا وتعظيما وسكونا لك.. لأنك أنت الآمر، وأنت الخالق، وأنت المبدع.. وليسوا سوى مظاهر لجمالك وكمالك، وهل يمكن للعاشق أن يعشق الظاهر، ولا يعشق المظاهر التي يُظهرها أو يظهر بها؟.. وهل يمكن لمن يحب الشاعر أن يكره قصائده؟.. وهل يمكن لمن يحب الرسام أن يكره لوحاته؟

لذلك يا رب.. فإن قلبي محفوظ لك، ومتوجه إليك، وما دخله ليس أغيارا تزاحم محبتك، وإنما هي آثار لمحبتك.. وإنما هو فيضان لبحر محبتك.. وهل يمكن لعاشق أن يخالف محبوبه في الحب والبغض؟

إلهي.. فكما ملأت عقلي بكل براهين وحدانيتك، حتى استحال عليه أن يعتقد التعدد، أو يقع في مستنقعات

الشـــرك.. فاحفـــظ قلـــبي المتقلب من أن يقـــع في تلـــك المستنقعات الآسنة، فينشغل بالمظاهر عن الظاهر، وبالأنوار عن النور، وبالأشياء عن مشيئها، وبالأكوان عن مكونها.

# اللطيف الخبير

إلهي.. أيها اللطيف الخبير.. الذي يعلم كل شيء.. ظاهره وباطنه.. ومكشوفه وغامضه.. وسره وعلانيته.. ويعلم ما يصلحه.. وما يفسده.. وما ينفعه.. وما يضره.

عندما أراقب أنفاسي، وهي تمتص رحيق النسيم، فيمر في جنبات جسمي لطيفا هادئا لا يشعرني بأي نوع من الانزعاج ولا القلق، مع أنه يقوم بأعقد عمليات الاحتراق، ليوفر لي ما أحتاجه من الراحة، ويحول من ذلك الطعام مادة تزود خلاياي بالحياة.

وعندما أتذوق الطعام، وأجد لذته، وأرى مروره الهادئ بين أجهزة جسمي وأعضائي ودمي وخلاياي.. مع أنه يقوم بأعقد العمليات التي لا تضاهيها جميع مصانع الدنيا.. من غير أي ضجيج ولا ضوضاء ولا قلق.

وعندما أرى جسمي على الكرة الأرضية، وهي تتحرك حركتها السريعة، وتسبح مع الكواكب والنجوم في أفلاكها الدقيقة من غير أن يصيبني الدوار، ولا الغثاء.. بل أشعر، وكأني ذلك الرضيع الذي يتقلب في مهده بكل سعادة وراحة.

وعندما أرى مصابيح النهار تنطفئ بالليل لتتيح لي نوما مريحا..

وعندما أراها تشتغل بكل هدوء ولطف مع تنفس الصبح، لتتيح لي أن أتقلب في هذه الحياة ومطالبها..

وعندما أرى كل شيء معدا إعدادا دقيقا، وكأنه لم يخلق إلا لأجلي، فأشعة الشمس حانية.. وألوان الفضاء زاهية.. والماء العذب يترقرق بانسيابية وهدوء وجمال.

عندما أرى كل ذلك يا رب.. أرى لطفك وحنانك وخبرتك بما يحتاجه خلقه.. فلذلك تتكرم عليهم بكل ما يصلحهم، ويصلح لهم، وتبعد عنهم كل ما يزعجهم ويؤذيهم.

يا رب.. عندما أرى كل هذا أتيقن أن كل شيء يحصل في هذه الحياة هو ثمرة للطفك وخبرتك التي لا ندركها.. فخالق الحياة هو خالق الكون.. وهو أنت..

وما دام لطفك يتحكم في عالم الأكوان، فهو يتحكم في عالم الحياة.. وما دام هو المتحكم في عالم الآفاق، فهو المتحكم في عالم الأنفس.

لقد أدرك نبي الله يوسف صلواتك عليه وسلامه هذا المعنى عندما قال في خاتمة مسيرة حياته: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف: 100]

لقد أدرك أن الأذى الذي أصابه به إخوته.. والبئر التي رمي فيها.. والعبودية التي امتحن بها.. والإغراء الذي تعرض له.. والسجن الذي لبث فيه بضع سنين.. لم يكن كل ذلك سوى مقدمة لتتويجه بذلك التاج الشريف الذي أتاح له أن ينقذ البشر من المجاعة.

لقد كان كل ذلك ضروريا حتى يصل إلى ذلك المحل، بعد أن يمر بكل أصناف الفتن ما ضر منها، وما سرّ.. ليسير بعد ذلك وفق التجارب التي عاشها، والتربية التي ربيته بها.

وهكذا يمكن لكل الخلق إن فهموا سر لطفك أن يتوجوا بمثل ذلك التاج.

وذلك التاج ليس ضروريا أن يكون في الدنيا.. فالدنيا دنيا.. وقصيرة.. ولا معنى لها.. ولو كانت تعدل عندك جناح بعوضة ما سقيت منها كافرا شربة ماء.

لذلك يمكن لكل الناس.. لكل الفقراء.. والمحرومين.. والمرضى.. والمبتلين.. أن يعتبروا أنفسهم قد وقعوا في الجب الذي وقع فيه يوسف، ورُموا في السجن الذي رمي فيه.. فإن أحسنوا كما أحسن يوسف، وصبروا كما صبر، ورضوا كما رضي.. فسيتوجون بذلك التاج الذي توج به.. ويصبحون أعزة بعد أن كانوا أذلة.. وأصحاء بعد أن كانوا مرضى.. ومنعمين بعد أن كانوا مبتلين..

لو فقهوا اللطف الإلهي لعلموا أن اللطيف الخبير لا يؤذيهم ولا يعذبهم ولا يتفنن في الإساءة لهم كما تزعم الشياطين.. بل هو يصعد بهم في لطف وحنان وتؤدة إلى أن يصلوا إلى الكمال الذي أتيح لهم، والتيجان التي يستحقونها.

إلهي.. وأسألك بلطفك الذي غمرت به كل شيء، أن تلطف بي في مجاري أقدارك حتى لا يقع لي منها إلا ما يسعدني ويرفعني ويؤهلني لتلك المناصب الرفيعة التي

أهلت لها أولياءك بعد أن امتلأت قلوبهم محبة لك وشوقا إليك.

يا رب.. الطف بقلبي كما تلطف بجسدي حتى لا تحرقه الأغيار، فينصرف عنك، فيختنق بذلك الانصراف.. فأنت هواؤه وحياته.. ولا حياة له من دونك.

يا رب.. وأسألك بلطفك أن تلطف بهؤلاء البشر المساكين الذين تركوا سبيل أنبيائك وأوليائك وراحوا يسلكون سبل الشياطين، ويتمردون على الصالحين والقديسين الذين علمتهم تأويل الحديث، وأرسلتهم إلى البشر لينقذوهم من جوع الروح، كما أنقذهم يوسف من جوع الجسد.

لقد كان جوع المصريين لسبع سنين.. وأنقذهم نبيك يوسف منها.. ونحن يا رب قد امتد جوعنا لمئات السنين.. ونسألك أن تنقذنا من تلك البقرات العجاف والسنابل اليابسات التي تلتهم حياتنا ودیننا وأخلاقنا وكل شيء صالح فينا.

يا رب نحن في انتظار ذلك الذي وعدتنا به، فقلت: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55]

وننتظر بشغف ذلك الوعد الذي كتبته في جميع كتبك، وقلت عنه: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء: 105]

وننتظر من لطفك أن يتحقق ذلك الوعد الذي ينقذ البشرية، ويقتل شياطينها، والذي قلت فيه: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة: 33]

يا رب لا مبدل لكلماتك، ولا خلف لوعدك.. ونحن ننتظر لطفك بنا، وبهذه الأمة، وبالبشر جميعا.. حتى يعودوا إليك، وتعود إليهم مع العودة إليك تلك الابتسامة التي سرقتها منهم الشياطين، وعوضتهم بدلها ما نراه من صراع وسفك دماء.

# الدال والدليل

إلهي يا من دل كل شيء عليك.. وكنت الدليل على كل شيء.. فلا يحجب عنك إلا من طُبع على قلبه، وغُشي على بصره وبصيرته.

لقد سألت كل شيء عنك، وعن دليله عليك، فأخبرني أنك أنت الدليل على الأشياء.. لأنها لولاك لم تكن.. ولذلك كان وجودك مقدمة لوجودها.. وحضورك الدائم بذرة لحضورها.. ولطفك العظيم ورحمانيتك السابغة عنوانا لظهورها.

عميت عين لا تراك، وأنت حاضر في كل شيء.. وخسرت صفقة عبد يشك في وجودك، وقد دل عليك كل شيء، بل أنت الدليل على كل شيء.

ولو أن هؤلاء نظروا إلى الضعف والقصور والعجز المرسوم في صفحات الأشياء، لعرفوا أن ذلك أكبر دليل عليك.. فلا يخرج الضعيف عن ضعفه إلا القوي، ولا يخرج المريض عن مرضه إلا الطبيب.. ولذلك كان مجرد بدو الضعيف قويا دليلا على وجود القوي.. ومجرد تحول المريض سليما دليلا على وجود الطبيب.

يا رب.. لو أنهم طبقوا هذه المعايير الموجودة في عقولهم، والتي يزعمون من خلالها أنهم عقلاء وفلاسفة ومفكرون وعلماء.. ثم يتباهون بذلك، ويتفاخرون به.. لو طبقوها على الأشياء لدلتهم كلها عليك، ولعرفوا أنك أنت الحقيقة العظمى التي سبقت وجود كل شيء.. ولولاها لما وجد شيء.

وهل يمكن أن يتشكل القصر العظيم من غير أن يكون هناك مهندسون يخططون لبنائه، وعمال يقومون بالبناء.. ويكون معهم الكثير من الرمل والإسمنت وكل أدوات البناء.. فهل يعقل أن نؤمن بوجود القصر، ثم لا نؤمن بوجود المهندس الذي صممه، والبناؤون الذين قاموا ببنائه؟

إنهم ـ يا رب ـ إذا رأوا قصور الدنيا، حتى لو كانت خربة قد أكل عليها الدهر وشرب، يقرون بوجود أصحاب لها، ويعجبون بالمهندسين الذين صمموها، ويحفظونها في الآثار،

ويكتبــون عنهــا الكتب.. لكنهم يمــرون على تلــك القصــور العجيبة الموجودة في خلايا أجسامهم، وفي كل شـيء يحيـط بهم، ثم لا يعيرونها أي اهتمام، وكأنهـا تملـك من العقـول مـا يجعلها مستغنية عن المهندسين والمصممين والبنائين.

يا رب.. لو أنك لم تخلق في كونـك جميعـا سـوى زهـرة واحدة لكانت دليلا للعاقل يدله عليك، ويوصـله إليـك.. وكيـف وأنت خلقت ما لا يعـد ولا يحصـى من المخلوقـات، ومن كـل الأنواع، وبكل الهيئات..

لكن عقل الجاحد يعرض عنك، ويظل يمـيز بين إبـداعك وإبداع من يتوهم أنه إبداعهم من خلقـك.. حيث ينسـب إليهم كل ما يصـلون إليـه من اكتشـافات لبعض بـدائع صـنعك، في نفس الوقت الذي يعمي عينيه عنك.

وهـو يجـادل في ذلـك.. ولا يعلم أن جدالـه نفسـه دليـل عليــك.. فمن أين لتلــك المــواد الكيميائيــة الــتي يتصــور أن حركتهـا هي السـبب في تحـرك فكـره القـدرة على التفكـير والجدل، وهي مجرد مـواد ميتـة لاعقـل لهـا، ولا مشـاعر، ولا أحاسيس.. وهل يمكن للموتى إذا اجتمعـوا أن يشـكلوا حيـاة ممتلئة بالإدراك والوعي والأحاسيس؟

وهكــذا يمكنــه أن يتســاءل عن تلــك الزهــرة الممتلئــة بالجمال، مع أنها صماء بكماء لا عقل لها.. فهـل تملـك أدوات الألوان، أو عبقرية الفنان، أو تلـك المـواد الكيميائيـة لتشـكل نفسها بتلك الصورة الجميلة التي تجتمع فيها الألوان الباهرة، والــروائح الذكيــة، والتناســق العجيب، ثم تظهــر في أوقــات محددة، وتختفي في أوقات أخرى بعد أن تؤدي بدقة ما وكـل لها من وظائف هي نفسها لا تعلمها.

هل يعقل أن تكون تلك الزهرة هي التي صنعت نفسـها، وهي التي صممت ألوانها، ومزجت من المواد المنتشرة بينها مــا شــكل رائحتهــا؟.. وهــل هي على علم بعلــوم الفيزيــاء والكيمياء والطبيعـة؟.. وهـل هي على علم بـالمواد المحيطـة بها وتفاصيلها؟

إن الحمــق يبلـغ مبلغـه من أولئـك الـذين يرونهـا، ثم لا ينسبونها إليك، أو يعتبرونها رسالة منـك إليهم لتـدلهم عليـك، في نفس الوقت الذي ينبهـرون فيـه للبـاحث البسـيط الـذي استطاع أن يكتشف الصيغة الكيميائية المشكلة لروائحهـا، أو

سـر ألوانهـا وبهائهـا، أو ذلـك الفنـان الـذي يقلـد جمالهـا في لوحاته.

إنهم إذا رأوا تلك اللوحات انبهروا بهـا، وسـجدوا للفنـان الذي رسمها.. وأحـالوا أن يكـون ذلـك الرسـم مجـرد صـدفة لألوان اجتمعت.. بل يعتبرونها إبداعا عظيما، ومن عقل جبار، وذوق رفيع..

لكنهم ـ يا رب ـ يتركون تلك المكاييـل الـتي حكمـوا بهـا للعالم والفنان، ليطبقوا على الزهرة قوانين الصدفة العمياء، والطبيعة البكماء الصماء المجنونة.

إلهي.. ولـذلك كـان وجـودك دليلا على وجـود الأشـياء، وكمالك دليل على مـا أودع فيهـا من قـوى وطاقـات لا يمكن أن يوفرهـا إلا صـاحب علم عظيم، وإرادة نافـذة، وقـدرة باهرة.

يـا رب.. عنـدما أتأمـل في سـر ذلـك الغبـاء والحمـق والغفلـة الـتي يقـع فيهـا أولئـك الـذين يزهـون بأنفسـهم، ويـترفعون عليـك أعلم أن ذلـك أيضـا دليـل عليـك، فهم لم يحتجبوا عنك، وإنما أنت الذي حجبتهم، لأنـك لا تريـد أن تـري جمالك تلك النفوس المملوءة بقـذارة الكـبر، وعفن الغـرور، والزهو الكاذب.

ولو أنهم بدل أن يسلموا أمر معرفتك لعقولهم المعقولة بأهوائهم، راحوا يطهرون أنفسـهم من تلـك القـاذورات الـتي تحـولت إلى قيـود وأغلال تحجبهم عنـك، لعرفـوك من غـير حاجة لأي دليل يدل عليك، لأن كل شيء يشـير بلسـان حالـه ومقاله إليك.

فالجهل بك ــ يـا رب ــ ليس ناشـئا عن دليـل أو علم أو فلسـفة أو فكـر.. وإنمـا هـو ناشـئ من تلـك الأمـراض الـتي سيطرت على البصيرة، فحـالت بينهـا وبين الرؤيـة الصـحيحة للأشياء..

لقـــد ذكـــرت ذلـــك يـــا رب.. وبينت ســـره، فقلت: { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَإِنْ يَـرَوْا كُـلَّ آيَـةٍ لَا يُؤْمِنُـوا بِهَـا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الرُّشْـدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَـبِيلًا ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } [الأعراف: 146]

فالكبر والغفلة والغرور هي الأمراض التي تسيطر على عين البصيرة، لتجادل في البديهيات الواضحات، ولو أنها طبقت ذلك الجدال على كل الحقائق التي تؤمن بها، لتبرأت منها، وتحولت إلى السفسطة التي تنكر كل شيء.

ولذلك كان أعقل الملاحدة وأكثرهم انسجاما مع نفسه أولئك السفسطائيين، لأنهم احترموا عقولهم، فطبقوا إنكارهم لك على الأشياء.. ذلك أنه لا يمكن لعاقل أن يجمع بين إقراره بوجود الأشياء، ثم لا يقرّ بك.

ذلك أن مثله مثل الذي يقر بوجود التصميم البديع، ثم لا يقر بوجود المهندس، أو يقر بوجود الشعر الراقي، ولا يقر بوجود الشاعر، أو يقر بوجود الترياق الشافي، ثم لا يقر بوجود الطبيب.

يا رب.. وأسألك أن تخلص نفسي من كل ذلك العفن الذي يحول بينها وبين جمال معرفتك.. وأن تخلص عقلي من كل القيود التي تحول بينه وبين الرحلة إليك.. فأنت الغاية والمنتهى، وأنت البداية والأساس.. ومن لم ينطلق منك لم يصل إلى شيء.. ومن لم تكن أنت قصده فلن يصل إلا إلى السراب.

## القابض الباسط

إلهي يا من وصفت نفسك بالقبض والبسـط، فكـان من أسمائك الحسنى: القابض الباسط.. وهما اسمان ارتسما في كلماتـك جميعـا الصـامتة والناطقـة.. فقـد قلت في كلماتـك المقدسـة: {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُـطُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ} [البقـرة: 245]

وقد وجـدت حـروف هـذين الاسـمين الجليلين مكتوبـة.. ليس في كلماتـك المقدسـة فقـط، وإنمـا في كـل الأشـياء والمواقــف.. فكلهــا من فيض قبضــك وبســطك، وعطائــك ومنعك.. ابتداء من نفسي التي أعيش مشاعرها وأحاسيسها، وانتهاء بأبسط ذرة في الكون.

والغفلة عن علاقة ذلك بك ـ يا رب ـ وبأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، هو الذي يوقع الغافلين في الشـرك، ويجعلهم يتيهون في البحث عن الأسـرار والحقـائق بمـا يتوهمونـه من الأوهام التي لا وجود لها.

إن الغفلة ـ يا رب ـ جعلتنا نتوهم أن القبض الـذي يـنزل على نفوسنا، فيملأهـا بالكآبـة، سـببه ذلـك العـوز المـادي، أو ذلــك الفقــر العــاطفي، أو تلــك الحاجــات الــتي تهفــو إليهــا نفوسنا.. ولذلك نسعى لذلك العلاج الوهمي.. ثم نكتشف بعد ذلك أن الغنى المادي والعاطفي وغيرهما لم يغنيا عنا شـيئا.. بل كانا مجرد مهدئات، زال مفعولهـا بعـد اسـتعمالها لمـرات محدودة معدودة.

ولو أنا علمنـا أن ذلـك القبض الـذي أصـابنا منـك، وأنـك صـاحبه، وأنـه من تجليـات اسـمك القـابض.. وليس من ذلـك الفقر المادي أو العاطفي.. ولو علمنا أنك لم ترسل إلينا ذلك القبض ومـا يرافقـه من الاكتئـاب والإحبـاط والكـدر عقوبـة، وإنما أرسلته تنبيها وتأديبـا لنعـود إلى حقيقتنـا حـتى لا تقتلنـا الغفلة، فنتيه في وديان البسط والراحة والسرور غافلين عن سر رحلتنا في هذا العالم، وساكنين عن الصعود في المعـارج التي نصبتها لنا لنترقى في مدارج الكمال.

لو علمنا ذلك يا رب.. لتركنا كل شيء، ولجأنا إليك، ذلك أنه لا يسقينا بأكواب السعادة الخالصة غيرك.. بل إن اسـمك

الكريم هو الدواء الوحيد الذي يعالج كل أصناف القبض ما قدم منها وما استجد.. فاسمك دواء، وذكرك شفاء، وطاعتك غنى.

يا رب.. لقد ذكرت لنا ذلك في كلماتك المقدسة، فقلت: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]

والطمأنينة هي تلك السكينة التي تمتلئ بها النفس، وتمتلئ معها بكل أنواع النشوة والسعادة والسرور التي تجعل صاحبها يعيش عوالم الجمال المطلق التي لا توفرها له كل خمور الدنيا ومخدراتها التي يهرب إليها الغافلون ليعالجوا القبض الذي يصيب قلوبهم.

ولو أنهم تدبروا كلماتك المقدسة لعلموا أن ذلك الكدر والكآبة ليس سوى مظهر من مظاهر الغفلة عنك، أو هي تجل من تجليات اسمك القابض.. فأنت الذي بيدك مفاتيح السعادة، كما أن بيدك مفاتيح الشقاء.. في الدنيا والآخرة.. وقد ذكرت ذلك في كلماتك المقدسة، فقلت ـ تعد المؤمنين المقبلين عليك ـ: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]، وقلت ـ تتوعد المعرضين عنك ـ: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 124]

إلهي.. فهب لي من بسطك ما يرفعني عن كدورات الدنيا، ويجعل قلبي متعلقا بك، سائرا في طريقك، مقبلا بكل كيانه عليك.. وأعوذ بك من كل بسط وسرور وسعادة تحجبني عنك، وتملؤني بالغفلة، لأخسر بذلك روحي وحقيقتي التي لا يمكن أن يعوضها كل كنوز الدنيا.

إلهي.. عندما أخرج من عالم نفسي، وأدخل عوالم الآفاق المحيطة بي أرى حروف قبضك وبسطك مكتوبة في كل الكائنات.. فالزهرة تتفتح، وترسل أريجها عندما يتجلى عليها جمال بسطك.. وتنقبض وتذبل عندما يتجلى عليها جمال قبضك.. والعارف هو الذي يعرفك في كليهما، ويراك في كليهما، ويعيش معك في كليهما.

والريح عندما ترسل.. والليل عندما يعسعس.. والصبح عندما يتنفس.. كلهم يتحركون من خلال قبضك وبسطك..

لقـد ذكـرت ذلـك في كلماتـك المقدسـة، فقلت ــ عن الرياح ـ: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَـاحَ بُشْـرًا بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ } [الفرقان: 48].. وقلت عن الميـاه: {وَهُـوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْـدِ مَـا قَنَطُـوا وَيَنْشُـرُ رَحْمَتَـهُ وَهُـوَ الْـوَلِيُّ الْحَمِيـدُ} [الشورى: 28].. وقلت عن الفلـك: { هُـوَ الَّذِي يُسَـيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْـكِ وَجَـرَيْنَ بِهِمْ بِـرِيحٍ طَيِّبَـةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُـلِّ مَكَـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [يونس: 22]

وهكذا، فإن كل ما نراه في عوالم الآفاق والأكـوان ممـا نستبشر له، أو نحـزن بسـببه، ليس سـوى تجـل من تجليـات بسطك وقبضك.. والعارف هـو الـذي يقـرأ حـروف الرسـائل التي ترسلها إلينا من خلال ذلك القبض والبسط.. والغافل هو الذي يملأ بسـطه بالسـرور الكـاذب، واللهـو الفـارغ، والأمـل الطويل.. ويملأ قبضه بالقنوط من رحمتك، والهـرب إلى كـل العقاقير التي تقتل عقله وروحه وكل جمال فيه.

إلهي.. يا من بيده كل شـيء.. لجـأت إليـك، وأنـا عبـدك الضــعيف صــاحب القلب المتقلب.. أن تحفظــني من آثــار الأشياء، حتى لا تبعـدني عنـك.. فالسـعادة كلهـا في جـوارك، والطمأنينــة كلهــا في رحابــك.. وهــل يمكن أن يطمئن لأحــد عيش وهو يقاطع ويعادي ويغفل عمن بيده القبض والبسط؟

يا رب.. لقد رأينا بأم أعيننا أولئك الذين بذلوا كل حياتهم من أجل الثروة والجاه وكل أصناف المتع، لكنهم ماتوا بعـدها منتحرين.. لأنهم توهموا أن البسـط في تلـك الـثروة والجـاه، ولم يعلمــوا أن البســط بيــدك.. فــأنت الــذي ملأت قلــوب الصالحين بالسعادة من غير أن يكون لهم مال ولا متاع.. كما ملأت قلوب المستكبرين بالكدر مـع أن كـل شـيء كـان لهم وبجانبهم.

أنت يا رب صاحب مفاتيح السعادة والشـقاء.. والسـرور والكدر.. والفرح والحزن.. والنشوة والانقباض.. توزعهــا لمن تشاء، وكيف تشاء.. فاجعلنا من أهل السعادة والسرور، ومن أهل جنة الدنيا وجنة الآخرة.. فالجنان بيدك، والنيران بيدك.

أنت ــ يـا رب ــ من حـول نـيران إبـراهيم جنانـا وبـردا وسلاما.. فكلما حولتهـا لـه كـذلك، فحـول كـل النـيران الـتي

تحيط بنا إلى برد وسلام.. حتى لا يصيبنا منهـا شـيء.. فـأنت ربنا ورب كل شيء..

## الخافض الرافع

إلهي.. أيها الخافض الرافع.. المعز المذل.. من بيده أقدار الخلق يخفضها متى شاء، وكيف شاء، ويرفعها متى شاء وكيف شاء.

أسألك يا رب أن تجعلني من الذين رفعت أقدارهم برضاك، لا بسخطك، وبجودك لا بمنعك، وبفضلك لا بمقتك.

وأعوذ بك ـ يا أكرم الأكرمين ــ أن تستدرجني لمعارج الرفعة، حتى إذا وصلت إلى قمة قممها رميتني في الهاوية التي لا قرار لها.

وأعوذ بك يا رب أن تجعلني كأولئك الذين باعوا ذممهم ودينهم وأخلاقهم وكل قيمهم لأجل الظفر بذلك الجاه المحدود، والسمعة المشوبة، والشهرة المقيتة.

وأسألك يا رب أن تكون أنت جاهي.. فحسبي أن تراني.. وحسبي أن تعرفني.. وحسبي أن ترضى عني.. وحسبي أن تشرفني بحبك وقربك ولطفك..

فمن رضيت عنه يا رب وأحببته وقربته.. لا يبتغي عنك بدلا، ولا يرضى عنك متحولا، ولا يهتم لغيرك، أرضوا أم سخطوا؟.. أحبوا أم أبغضوا؟.. أعجبوا أم نفروا؟

من عرفك يا رب.. وعرف عظمتك لم يطلب الجاه عند غيرك، ولم يرض الرفعة عند سواك..

اجعلني يا رب مثل بلال الذي وضعوا الصخرة على صدره ليهينوه.. لكنه لم يلتفت لهم، وإنما التفت إليك، وكان يصيح في ذلك الموقف جذلان مسرورا بنظرك إليه، وهو يقول فرحا: أحد أحد.

يا رب.. واجعلني مثل عبدك الصالح الإمام الحسين.. ذلك الذي مزقوا جسده، وقطعوا رأسه، ثم رفعوه فوق الرماح، وهم يتوهمون أنهم أهانوه، أو خفضوه، بينما لم يهينوا إلا أنفسهم.. فقد توجته بكرمك في ذلك الحين الذي قطع فيه رأسه بكل تيجان العزة والرفعة والكرامة.. وتحول من عالم الدنس والمعايير المغلوطة إلى سيد شباب أهل الجنة.

يا رب واجعلني مثل نبيك ﷺ.. ذلك الذي تحمل في

سبيلك كـل ألـوان البلاء، حيث حرشـت بـه قـريش وكـل من ساندها من المجرمين الأطفال ليضربوه، والشـعراء ليهجـوه، والقصاصين ليكذبوا عليه، والوضاعين ليضعوا الأحاديث الــتي تسيء إليه.. لكنه لم يكن يلتفت لكل ذلـك.. بـل كـان نظـره إليك، وفرحه بك.. وعزته ورفعته معك وفي القرب منك.

يـا رب.. واجعلـني مثـل أوليائـك جميعـا.. أولئـك الـذين ضحوا بسمعتهم وكرامتهم من أجلـك.. فنطقـوا بـالحق الـذي سكت عنه الجبناء، عبيد السمعة والشهرة، وواجهـوا الباطـل في أوجه قوته.. ولم يبالوا بأنفسهم في ذاتك.

إلهي.. وأعوذ بك من أولئك الذين انتكسوا بعدما رفعتهم بــالعلم.. لكن حرصــهم على ســمعتهم وشــهرتهم وجــاههم وصيتهم جعلهم يضحون بالحقائق في سبيل تلك القلوب التي قيدتهم واستعبدتهم من دونك.

إلهي أعوذ بك من أن أكون من تلك الطائفة التي مثلهـا بلعم بن بـاعوراء الـذي ضـحى بصـحبته للأوليـاء في سـبيل صحبته للأشقياء، فأنزلت تِقـول فيـه: {وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: 175، 176]

أو ذلك القرشي الـذي سـمع كلماتـك المقدسـة، وأدرك إعجازهـا، لكن خشـيته على سـمعته جعلتـه لا يقـرّ بكونهـا كلماتك، وإنما بكونها سحرا، وهو يعلم أنها ليست كذلك.. لقد قلت تصفه: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَـهُ مَـالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَـهُ تَمْهِيـدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَـانَ لِآيَاتِنَـا عَنِيـدًا (16) سَـأُرْهِقُهُ صَـعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَـدَّرَ (18) فَقُتِـلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَـدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَـرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَـرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُـؤْثَرُ (24) إِنْ هَـذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)} [المدثر: 11 - 25]

أو كأولئـك المسـتكبرين الـذين طلبـوا من أنبيائـك أن يصرفوا المستضـعفين حـتى لا تهـان كـرامتهم، أولئـك الـذي ذكرت مقولتهم: {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَـرَاكَ اتَّبَعَـكَ إِلَّا

الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [هود: 27]، لكنهم اكتشفوا بعد حين أن أولئك الذين سموهم أراذل كانوا أصحاب جاه عظيم عندك، وعند ملائكتك، وعند أنبيائك.

وأعوذ بك يا رب أن أكون كأولئك الذين يدّعون العلم والمعرفة والحكمة لكنهم ــ بعد أن يرتفع جاههم، ويذيع صيتهم ـ ينسون كل الحقائق التي تعلموها، استسلاما لذلك الصنم الذي شكلوه لأنفسهم، وراحوا يطلبون الخلق بعبادته.

إلهي.. أيها الخافض الرافع.. أسألك أن ترفعني في ذلك الوقت الذي يُخفض فيه المستكبرون، ويرفع فيه المستضعفون في ذلك اليوم العظيم الذي ذكرته، فقلت: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: 55]

وأعوذ بك يا رب أن أرفع في ذلك الوقت الذي تنتكس فيه الحقائق، وتضل فيه القيم.. ويصبح سيد القوم أكثرهم نفاقا ودجلا وكذبا.

يا رب.. وإن جعلت لي في قلوب عبادك أي رفعة أو مكانة.. فأعوذ بك أن أستسلم لها، أو أرضى عنها، أو ألتفت إليها.. حتى لا تستعبدني قلوبهم دونك، وحتى لا يصبح رضاهم غايتي، لا رضاك.

يا رب.. أسألك أن أكون كذلك الصالح الذي قال:

فليتك تحلو والحياة مريرة... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين... وكل الذي فرق التراب تراب

# الجبار القهار

إلهي.. أيها الجبار القهار الـذي أعطى لعبـاده كـل أنـواع الفضل والكرامة، فجبر بـذلك كسـرهم، وقهـر بـذلك كـل مـا يؤذيهم، ومن يؤذيهم.

يا رب.. عندما أقرن بين أسمائك الحسـنى الـتي تجتمـع فيها كل أنواع الرحمة واللطف والعفو والمغفرة، مع أسمائك التي يجتمع فيها القهر والغيرة والجـبروت.. أشـعر بالسـعادة العظمى.. فأنت الكامل الذي تجتمع فيه كل صفات الكمـال.. فالذي تقتصر صـفاته على الرحمـة واللطـف، ثم لا ينتقم من المتجـبرين المتكـبرين، ولا يعـاقب من يتحـدى حـدوده، ولا يجازي من يظلم عباده ضعيف لا يستحق أن يكون إلها.. وهو برحمتـه المسـتكبرين يكـون قاسـيا على المستضـعفين، وبرحمته للمتجاوزين لحدوده يكون دافعا لتجاوزها.

يا رب.. لقد رأيت من عبادك من يأنف بك عن مثل هذه الصفات، ويتوهم أن كمالك في إتاحة كل أنواع الحرية للتجبر والتكـبر والغطرسـة والظلم، ثم لا يجـازى أصـحابها بعـد كـل جرائمهم إلا بالجنان والنعيم..

يـا ليت شـعري.. كيـف يفكـر هـؤلاء.. وهم الـذين تثـور ثائرتهم، ويوجهون جام غضبهم لمن انتهـك حـرمتهم بكلمـة.. ويعتبرون غضبهم كمالا فيهم.. ويتهمون من انتهك عرضه ولم يغضب بالدياثة والبلادة.. لكنهم إن أتوا إليك فرضوا عليـك أن تكون بتلك الصفات التي أنفوا منها.

ولـو أنهم ـ يـا رب ـ قلبـوا طـرفهم في الكـون حـولهم لوجدوا أن كمالك في تـوفر كلا الصـفتين: الجلال والجمـال.. والرحمة والقهر.. واللطف والانتقام.

فأنت ـ يا رب ـ خـالق الربيـع، وخـالق الشـتاء.. وخـالق الثلج، وخـالق النـار.. وخـالق البسـمة، وخـالق الدمعـة.. أنت الذي تضحك وتبكي.. وتسعد وتشقي.. وتحن وتعاقب.

أنت يا رب الذي يغـير على حرمـات الكـون والحيـاة أن تنتهـك.. وعلى القيم الـتي فرضـتها أن يتجاوزهـا العتـاة والمـردة.. فأسـماؤك الحسـنى تقتضـي كـل ذلـك.. وجمـال الكون والحياة يقتضي ذلك.

ولذلك أمرت رسولك أن يقول مخاطبا عبادك، ومعرفا لهم بك: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: 49، 50]

ولذلك جعلته، كما جعلت جميع الرسل مبشرين ومنذرين، فقلت: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأنعام: 48، 49]

وهكذا جعلت أولياءك العارفين بك.. لا يقنطون عبادك من رحمتك، ولا يملأونهم بالجرأة عليك.. بل يعرفونهم بكمالك المملوء بالرحمة والمملوء بالغيرة.

يا رب.. تجلى قهرك وجبروتك وجلالك من أن يكون كقهر وجبروت وجلال المستكبرين.. فهم يفعلون ذلك لينتقموا، ويملأوا نزوات نفوسهم الأمارة.. وأنت المنزه عن كل ذلك.

فقهرك يا رب قهر رحمة وعدالة ولطف.. فأنت لا تعذب المجرمين إلا لتؤدبهم، ولتنتقم للمستضعفين الذين أوذوا بسببهم..

وأنت يا رب.. تمهلهم فوق ذلك بالعمر الطويل.. وبإرسال المبشرين والمنذرين.. وبإنزال الآيات البينات.. وبتوفير كل ما يحتاجونه من المواعظ والبينات ليتركوا غيرهم، ويعودوا إلى رشدهم.

فإن عادوا إليك قبلتهم.. وإن تمادوا عاقبتهم.. بحسب القوانين التي وضعتها لكونك، والكلمات التي لا مبدل لها.

يا رب.. وأسألك أن تشفي صدري بعقاب أولئك الذي آذوا أنبياءك وأولياءك والصالحين من عبادك.. يا رب اشف صدري من أولئك الذين آذوا المستضعفين، وسفكوا دماءهم، وسرقوا خبزهم، وملأوا حياتهم بالكدر.. فكما ملأوها بذلك، فاملأ حياتهم.

يا رب.. وأعوذ بك أن أظلم أو أُظلم.. أو أكون قاسيا كأولئك الجبارين الظالمين الطغاة..

يا رب.. فطهر قلبي ليكون أهلا لرحمتك، لا لانتقامك.. ولعفوك، لا لقهرك.. وللطفك لا لعذابك.. فأنت تعلم أني لا أطيق عذابك.

يا رب.. لقد أرسلت إلينا من الرسل، وأنـزلت علينـا من الكتب، وبينت لنـــا من البينـــات، ووضـــعت في عقولنـــا من الحقائق والمعايير ما أقمت لنا به كل الحجج..وقــد قلت في كلماتــك المقدسـة تــذكر ذلــك: {قُـلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَـةُ} [الأنعام: 149]، وقلت: {رُسُلًا مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَـانَ اللَّهُ عَزِيـزًا حَكِيمًـا } [النساء: 165]

ولذلك ــ يـا رب ــ لن يتعـرض لعقابـك إلا أولئـك الـذين جحدوا رسلك، واحتقروا كتبك، وتلاعبت أهواءهم بما وضــعت في عقـــولهم من الحقـــائق.. ولـــذلك كـــانوا أهلا لبطشـــك وانتقامك، بعد أن لم يبقوا أهلا لرحمتك ولطفك.

يا رب.. وأسألك يا جابر المنكسـرين، وقـاهر الظـالمين، أن تجبر كسري، وتقهر كل من تعدى علي وظلمـني مسـتغلا إمهالــك.. فكن أنت المنتقم منــه، واجعــل كيــده في نحــره، وقني وق المؤمنين من شره.

يا رب.. أنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.. فاستجب دعائي، وأعطني طلبتي، واجعلني من أهـل رحمتـك ولطفـك وإجابتك.. وأخرجني وأخرج المستضعفين من نـير المتكـبرين المتجـبرين.. يـا رب فـاقتلهم بأسـلحتهم، ودمـرهم بعـددهم وعــدتهم، وقيــدهم في قيــودهم الــتي أعــدوها للمظلــومين المحرومين.. إنك أنت أرحم الراحمين.

# العفو الغفور

إلهي.. أيها العفو الغفور.. الحليم الصبور.. الذي يعطي لعباده الفرصة تلو الفرصة، ليرجعوا إليه، ويصححوا أخطاءهم، فإذا فعلوا ذلك أقبل عليهم، ومسح عنهم كل سيئاتهم، وطهرهم منها، وكأن شيئا لم يحصل منهم.

لقد سمعتك في كلماتك المقدسة تخاطب عبدك المذنب، وتقول له بكل حنان ورحمة[1]: عبدي.. متى جئتني قبلتك.. إن أتيتني ليلا قبلتك.. وإن أتيتني نهارا قبلتك.. إن تقربت مني شبرا تقربت منك ذراعا.. وإن تقربت مني ذراعا تقربت منك باعا.. وإن مشيت إلى هرولت إليك.. لا تحجبك الخطايا عني، فلو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة.. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك..

وسمعتك تقول ـ واصفا حال عبادك وإعراضهم مع كل ذلك الفضل والحنان الذي تبديه لهم ـ: هل هناك من هو أعظم مني جودا وكرما.. عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم..

وسمعتك تصف الجاحدين من عبادك الذين لا يرضيهم شيء، فتقول: إني والجن والإنس في نبإ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي.. من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

وسمعتك تذكر حنانك ولطفك على كل عبادك، البار منهم، والفاجر، فتقول: أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.. من آثرني

---

1() وردت هذه العبارات في أحاديث قدسية متفرقة.

على سواي آثرته على سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.. أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل.. رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها..

وقد سمعتك في كلماتك المقدسة التي أنزلتها على خاتم رسلك، تقول ـ مخاطبا عبادك ـ بكل لطف، وأنت الإله العظيم الغني عنهم، وعن كل شيء: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53]

إلهي ما أعظم حيائي منك، وأنا أسمع منك هذه الكلمات المليئة باللطف والرحمة والحنان، وأنت الإله العظيم الذي يملك كل شيء، وقد قلت في كتابك الكريم: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50]

ومع ذلك ـ رب ـ تصبر على عبادك، وتمهلهم، وتعطيهم الفرص الكثيرة، بل تأمر أنبياءك وأولياءك والمصطفين من عبادك أن يتعاملوا معهم بكل لطف وحنان، فقد أرسلت كليمك موسى إلى فرعون، ذلك العتل الغليظ الذي قال: { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: 24]، لتأمره بأن يقول له: {قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 44]

ونحن يا رب القاصرون المستضعفون الممتلئون بكل أنواع القصور والنقص، تقوم قيامتنا، ويزلزل كياننا، لأجل مواقف بسيطة تحصل لنا، ثم لا ننال راحتنا إلا بعد أن نشفي غلنا من الذي آذانا وعادانا وأخطأ في حقنا.

يا رب.. فهب لنا من جميل الصبر ما نتأدب فيه بأدبك، ونتخلق فيه بخلقك.. فنسامح ونعفو، ونصبر، ونكظم غيظنا، ونتيح الفرص لمن أخطأ في حقنا.. فإذا ما جاءنا معتذرا، قبلنا منه، ومحونا ما بيننا وبينه من إساءة، وجددنا الصحبة معه، وكأن شيئا لم يحصل.

إلهي.. أنت تعلم تقصيري في حقك، وضعفي عن ذكرك، وكسلي عن القيام بعبادتك.. فهب لي من جميل العفو والمغفرة ما يغطي قصوري ونقصي.. وهب لي من جميل فضلك ما يملأ قلبي بتلك المعاني المقدسة التي

وهبتها للعبّاد من عبادك، والزهاد من أوليائـك، والعـارفين من أحبابك.

إلهي.. وإن بدر مـني تقصـير، فـأنت تعلم أنـه ليس جهلا بحقك، ولكنه الكسل والغفلة وأهـواء الـدنيا.. وإلا فـإن قلـبي يحن أن يقضي عمره ساجدا لك، منيبا إليك، لا تجده إلا حيث أمرت، ولا تفقده إلا حيث نهيت.

يا رب.. فعاملني بنيتي، ولا تؤاخذ جسـدي بتقصـيره، ولا نفسي بغفلتها، ولا لساني بفتوره، ولا جسدي بقعوده..

يا رب.. واجعل مغفرتك لي وعفوك عـني سـببا لحيـائي منك، لا لجرأتي عليك، حتى أتطهر من كل شيء يحول بيــني وبينك، وأمتلئ بكل ما يقربني منك.

إلهي.. وهب لي من جميـل اليقين مـا يحـول بيـني وبين اليأس من عفوك ومغفرتك ورحمتك، فأنت أرحم الــراحمين، وأنت الغفار الذي لا تثقل على مغفرتـه الـذنوب ولـو كـثرت، ولا يعجز عن الصفح عن أصحابها، ولو أسرفوا.

إلهي.. وأعوذ بك من أن يكون صبرك وصـفحك وحلمـك عني قائدا لي إلى معصيتك، أو التقصير في حقك، بل اجعلــه قائدا لي لأعظمك وأقدسك وأحبك.

وهب لي ـ يا رب ــ من جميـل العصـمة مـا عصـمت بـه أنبياءك وأولياءك، فحفظتهم من نزغات الشــياطين، وجعلتهم لك من المخلَصين، فلا تمـر بأذهـانهم غوايـة، ولا تخطـر على بالهم غفلة.

يـا رب.. واجعـل اسـتغفاري لـك اسـتغفار الصـادقين، لا الساخرين المستهزئين، الذين لا يعدو استغفارهم ألسنتهم.

يـا رب.. واجعـل اسـتغفاري لـك مثـل اسـتغفار أنبيائـك وأوليائك.. استغفار ترق، لا استغفار تـدنّ.. ومن غين الأنـوار، لا من غين الأغيار.. فأنت تملك نفسـي وقلـبي وكـل كيـاني.. فاجعلني لك وحدك، وهب لقلبي سجدة أبدية لا ينهض بعــدها أبدا.. إنك أنت أرحم الراحمين.

# الوهاب الشكور

إلهي.. يا صاحب الكرم العظيم.. يا جواد.. يا وهاب.. يا شكور.. يا من لا يضيع عنده سعي الساعين.. ولا اجتهاد المجتهدين.. بل يجازيهم عليه، ويضاعف لهم الجزاء.. بل يتقبل منهم النقير والقطمير.. ويضاعفه بشكره وجوده أضعافا لا تعد ولا تحصى.

إلهي.. ما أعظم حيائي منك، وأنا الذي أطمع في جودك وكرمك وشكرك، مع أن كل ما وهبتني من فضلك ولطفك وهدايتك..

فلولاك لم اهتد إليك.. ولولاك لم أعبدك.. ولولاك لم أسر إليك.. فقد اجتذبتني بجواذب لطفك، وحننت علي بسوابغ مننك إلى أن صرت على باب أعتاب جودك، فغمرتني منها بما لا طاقة للساني بإحصائه وعده.

يا رب.. ومن ذا يطيق أن يحصي نعمك.. وهي لا حدود لها، كما لا حدود لك.. وهي لا نهاية لها، كما لا نهاية لك..

يا رب.. لو جعلت لنا في كل خلية لسانا، وعلمت كل لسان كل أنواع المحامد ما أطقنا شكرك.. فأنت أعظم من أن يحاط بشكرك، كما أنك أعظم من أن يحاط بك.. فشكرك منك، وشكرك تابع لذاتك، وذاتك لا حدود لها.

إلهي.. ما عساي أقول.. وأنا الذي لا أنطق إلا بإذنك وفضلك.. ولولاك لعُقد على لساني، ولولاك لعُقل عقلي أن يعرفك، أو يحمدك، أو يثني عليك.

يا رب.. فكما أطلقت لساني بشكرك، فاملأ كل كياني بمعرفتك.. واملأ كل قلبي بمحبتك.. فأنا لا أريد سواك، ولا غاية لي إلا رضاك.

يا رب.. أعوذ بك من أن تجعل ما وهبتني من مننك السابغة حجابا يحول بيني وبينك، فأفرح بنعمك، وأنساك.. وأنشغل بها عنك.. فيكون في ذلك حجابي.. ويكون ذلك جحيمي..

فما الجنة لولا معرفتك والتواصل معك ومحبتك.. وما النعيم سوى أن تلتذ عين قلبي بمشاهدتك ومشاهدة عظمتك والفناء فيها عن كل شيء.

فاجعل شكرك لي على طاعتي أن تهبني فيها من الخشوع والخضوع والذلة والمحبة ما طلبته مني حتى لا تكون أعمالي أجسادا بلا أرواح، وأشباحا بلا معاني.

يا رب.. واجعل شكرك لي على طاعتك أن أداوم عليها، كما أمرتنا، وكما تحب.. حتى لا تجدني إلا حيث أمرت، ولا تفقدني إلا حيث نهيت.

يا رب.. تعالى شكرك أن تكون له علة مني أو من طاعتي القاصرة.. بل هو جود محض منك.. وما أنا إلا الغارق في بحار فضلك، المستقر في جنان جودك.

يا رب.. فاغفر لي طمعي في فضلك الذي يعقب قيامي بما أوجبت علي من طاعتك، فأنا لم أفعل ذلك لاعتقادي بأن عملي هو الذي أهلني لجودك وشكرك، ولكني فعلت ذلك لاعتقادي في كلماتك المقدسة التي قرنت لنا فيها بين شكرك وطاعتك، وبين عبادتك وفضلك.

يا رب.. وأنا أعلم أن طاعتك لم تكن لتصدر مني لولا إذنك.. وفرحي بإذنك أعظم من فرحي بها.. فإنك ما أذنت لي في طاعتك إلا لأنك تريد أن تقربني منك، وتصلني بك.. ووصلك عندي أعظم من كل طاعة.. وقربك عندي أعظم من كل نعمة.

إلهي.. أنا عبدك الفقير الذي أنعمت عليه بإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود.. ثم أنعمت عليه بالحياة بعد الموات.. ثم أنعمت عليه بالذكر بعد أن لم يكن شيئا مذكورا.. ثم أنعمت عليه بأن عرفته بك، وهو في عالم الذر.. ثم عرفته بك بعد أن أخرجته إلى هذه الدنيا.. ثم أنعمت عليه بأن يكون من أمة خاتم رسلك.. ثم أنعمت عليه بأن يهتدي بهديه، ويسير على خطاه، ويستن بسنته.. ثم أنعمت عليه بأن يقرأ كلماتك المقدسة، ويعيش معانيها.

يا رب.. كيف أحصي ما أنعمته علي من فضلك.. فأنت لم تخرجني في سني الفترة، ولا في عالم الجهالة، ولا في بوادي الضلالة.. بل أنعمت علي بالبصيرة بعد البصر، وبالمعرفة بعد العلم، وبالإنابة بعد الجهالة.. فلك الحمد على ذلك كله.. ولك الشكر الذي تنقطع معه الأنفاس.

إلهي هب لي من جميل شكرك ما يجعلني أحمدك في كل الأحوال والأوقات.. ومع كل النعم والآفات.. فأنت

المحمود في كل الأحوال، وأنت المشكور في كل الأوقات.

# القريب المجيب

إلهي.. أيها القـريب المجيب الـذي تعـالى أن يحتـاج إلى المكان أو التنقل.. فهو الغني بذاتـه عن كـل شـيء.. وتعـالى عن الحدود، فهو المطلق الذي يحيط بكل شيء.. وتعالى عن الحلـول والاتحـاد، فهـو المـنزه عن أن يكـون فيـه جـزء من مخلوقاته، أو يكون فيهم جزء منه.

إلهي.. لقد تاه الكثير من خلقك ـ عندما أعملوا عقـولهم القاصرة في معاني قربـك.. فبعضـهم راح ينفيـه، ويـزعم أن قربك من خلقك ليس سوى علمك بهم، وإجابتك لدعائهم مع أنـك صـرحت في كتابـك العظيم بقربـك الحقيقي، لا بقربـك المجازي.

لقد قلت ـ يا رب ـ في كلماتك المقدسة تبشـرنا بقربـك الحقيقي منـا: {مَـا يَكُـونُ مِنْ نَجْـوَى ثَلَاثَـةٍ إِلَّا هُـوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَـةٍ إِلَّا هُـوَ سَادِسُـهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِـكَ وَلَا أَكْثَـرَ إِلَّا هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7]

وأخـبرت الـذين يسـتخفون بأنـك معهم، ولسـت بعيـدا عنهم، فقلت: {يَسْـتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْـتَخْفُونَ مِنَ اللّـهِ وَهُوَ مَعَهُم} [النساء 108]

وأبلغتنا بتلك البشارة العظيمة التي أخبرتنا فيها بمعيتـك المطلقة، فقلت: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ بَصِيرٌ} [الحديد 4]

بل أخبرتنـا أن قربـك منـا لا يمكن تصـور مـدى حـدوده، فقلت: {وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الإِنسَـانَ وَنَعْلَمُ مَـا تُوَسْـوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق 16]

يا رب.. آمنا بما أنزلت.. وصـدقنا بمـا ذكـرت.. وصـدقنا رسولك حين قال لمن رآهم يرفعون أصواتهم بالـدعاء: (أيهـا الناس! أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصـم ولا غائبـاً، إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً، إن الـذي تدعونـه أقـرب إلى أحدكم من عنق راحلته) (1)

---

1() البخاري 13/ 372 ح 7386.

يا رب.. إنا وإن كنا مسلمين لكلماتك المقدسة في ذلك التصديق، إلا أن الكلمات التي أودعتها في عقولنا وفطرنا دعتنا إلى ذلك كما دعتنا إليها كل كلماتك المقدسة التي أنزلتها على أنبيائك.. فعدم قربك يعني بعدك.. وبعدك يعني انحصارك وحدودك.. وانحصارك وحدودك في عالم الأجسام والقيود، يجعلك متعددا، أو قابلا للتعدد.. فكل محدود معدود.. وكل من حصره المكان يمكن أن يكون معه ثان.

يا رب.. وقد جعلت فطرنا تسلم لذلك وتفرح به.. ولا تسأل عن كيفيته.. فأنت صاحب الغيب المطلق.. والذي يريد أن يتصورك أو يتخيلك أو يتوهمك يقع في فخاخ القياس والتشبيه، ويجعلك مثل خلقك، ويحكم عليك بمثل أحكامه عليهم.. فيفرض عليك القوانين التي فرضتها عليهم.. ويلزمك بالصفات التي جعلتها لهم.

يا رب.. كل من رام البحث في ذاتك وقع في الوهم.. وسيطر عليه الهوى.. لأنه كالأعمى الأصم البصير المسجون في قعر الأرض، والمحاط بجميع الظلمات، ومع ذلك يتجرأ في وصف الأكوان والمجرات، والكون المرئي والكون المحجوب.

أو كذلك التلميذ البليد الكسول الذي لم يجاوز مرحلته الابتدائية، وهو يريد أن يفهم أعقد القضايا الفلسفية، ويحل أصعب المعادلات الرياضية.

والأمر بالنسبة لك أشد.. فلا مقارنة بينك وبين خلقك.. ولا شبه بينك وبينهم في أي حال من الأحوال.. وقد قلت في كلماتك المقدسة: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]

يا رب.. وكما أنزهك عن البعد والمكان.. أنزهك عن الحلول والاتحاد، فقربك من خلقك لا يعني مماستك لهم، ولا مماستهم لك.. ولا كونك جزءا منهم.. ولا كونهم جزءا منك.. فتعاليت أن يكون فيك شيء من خلقك، أو يكون فيهم شيء منك.. وقد قلت في كلماتك المقدسة تعتب على المشركين: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ} [الزخرف: 15]

يا رب.. وأنا أسلم لك بذلك كله.. ولا أدع لعقلي ولا لوهمي ولا لكشفي ولا لخيالي أن يتصرف في فهم حقيقة

ذلك.. فأنت أجل من أن تحد بفهومنا، أو تحيط بك عقولنا، أو يصل إلى جلالك كشفنا..

ولـذلك حسـبنا من معرفـة قربـك أن نذوقـه ونعيشـه ونؤمن به ونسلم له.. ونشعر أنك معنا كما ذكرت.. ثم نسعى بعد ذلك لأن نكون معك.. ونصل إليك، ونتواصل معك..

فالقرب منـك يـا رب.. ليس قـرب أجسـام وإنمـا قـرب معارف ووصال.. فمن عرفك، وتواصل معك، وصـرت أنيسـه وجليسه، وملأت قلبه بحبك، كان الأقرب إليك، والداني منك.

يـا رب.. لقـد جمعت في كلماتـك المقدسـة بين قربـك وإجابتك، فقلت: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ} [البقـرة: 186]، وقلت ـ على لسـان بعض أنبيائـك ـ: {فَاسْـتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُـوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي قَـرِيبٌ مُجِيبٌ } [هود: 61]

يا رب.. ما أجمـل هـذه الكلمـات.. ومـا أجمـل المعـاني التي تحويها.. فقربك منا ليس مجرد قـرب معنـوي.. بـل هـو قرب له آثاره القريبة والبعيدة وفي كـل شـيء.. فـأنت ترانـا وتسـمعنا وتعلم كـل شـيء يحصـل لنـا أو نفعلـه عن قـرب وحضور، وشهود وعيان..

وأنت يا رب.. لا تكتفي برؤيتنـا وسـماعنا، وإنمـا تتـدخل برحمتـك ولطفـك، فتجيب دعواتنـا، وتحقـق غاياتنـا، وتبلغنـا مقاصدنا.. ولا تحتاج في كل ذلك لدعواتنا.

ولكن ربانيتك لنا تقتضي منا أن نـدعوك، ونتوسـل إليـك حتى يحصل الوصال بيننا وبينك، وبالوصـال تتحقـق المعرفـة، ويتنزل الإيمان.

يا رب.. فهب لي من جميل معرفتك، ما يجعلـني أشـعر بجميل قربك، ولذيذ ذكرك، وصدق مناجاتك، حتى لا يصرفني طلب المعاش أو الخلطة عنـك، حـتى أكـون كعبـدك الصـالح الذي قال:

إني جعلتـك في الفـؤاد محـدثي... وأبحت جسـمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس...وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

أو كذلك الذي قال، وهو يزهو فرحا بقربك:

راحتي يا إخوتي في خلوتي... وحبيبي دائما في حضرتي

لم أجد عن هواه عوضا... وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه... فهو محرابي إليه قبلتي
يا حبيب القلب يا كل المنى... جـد بوصـل منـك يشـفي مهجتي
قد هجرت الخلق جمعا أرتجي... منك وصلا فهـو أقصـي منيتي

# الحسيب الكافي

إلهي.. أيها الحسيب الكافي..

أنت يا رب الذي تكفي عبادك كل ما أهمهم؛ فلا يحتاجون معك إلى غيرك، وكيف يحتاجون، وكل مقاليد الأمور بيدك؟

وكيف يحتاجون ومفاتيح خزائن كل شيء تحت تصريفك؟

وكيف يحتاجون وأنت المدبر لكل شيء، فلا يعزب شيء عن تدبيرك؟

وكيف يحتاجون وأنت القاهر لكل شيء، فكل شيء مذعن لك، ساجد بين يديك؟

أنت حسيب عبدك الصالح موسى حين وقع بين فكي البحر وفرعون، فراح قومه ينشرون فيه المخافة قائلين: { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: 61]، لكن موسى الذي يعرفك رد عليهم بكل هدوء، وهو يبتسم، وينظر إليك: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]

وأنت حسيب عبد وخليلك إبراهيم إذ هم قومه أن يرسلوه إلى النار لتحرقه، فابتسم هادئا، وقال مخاطبا لكل الملائكة الذين جاءوا ليكونوا في خدمته: حسبي الله ونعم الوكيل.. فتركت أعداءه يرمونه في النار.. لكنك حولتها إلى برد وسلام.. فمفاتيح الحرق ليست بيد النار، وإنما بيدك، وأنت الذي تستطيع أن تجعلها حارقة، وأنت الذي تستطيع أن تجعلها بردا وسلاما.

وأنت حسيب خاتم رسلك محمد الذي اضطره قومه من المشركين للالتجاء للغار، وحين أحاطوا به، ولم يكن بينه وبينهم إلا أن يرموا بأبصارهم إليه، قال بكل هدوء لصاحبه الذي امتلأ خوفا: { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]

وأنت حسيب أولئك الصالحين {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173]

فكن حسيبي يا رب، كما كنت حسيبا لهم.. وكن كافي لي كما كنت كافيا لهم، وقد قلت في كلماتك المقدسة:

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} (الزمر: 36)

وكيف لا تكون حسيبي، وأنت حسيب كل شيء.. فكل شيء رهن لمشيئتك وقدرتك ولطفك ورحمتك.. وكل شيء خاضع لك.. ومن اكتفى بك، كفيته كل شيء، وقد قلت في كلماتك المقدسة: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } [النساء: 132]

فأسألك يا رب.. أن تكون حسبي في كل شؤوني حتى أعيش معاني قربك، ولذة وصالك، وأرى يدك الحانية وهي تمتد إلي كل حين بكل أنواع اللطف والكرامة.

إلهي أنت حسبي هاديا للسراط المستقيم.. فمن اعتمد في هدايته على عقله ضل، ومن اعتمد على فكره زل، ومن اعتمد على الخلق أسلموه إلى الهاوية..

فكن أنت حسبي الذي يكفيني أمر هدايتي، فلا أضل وأنت معي.. وكيف أضل وأنت الهادي الذي هدى كل شيء، وقد قلت في كلماتك المقدسة: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} [الزمر: 37]؟

إلهي أنت حسبي معلما.. فخزائن العلوم بيدك.. وأنت الذي تعلم من تشاء بما تشاء، وقد قلت في كلماتك المقدسة: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة: 282]

فيا من علمت أنبياءك وأولياءك أصناف العلوم، وجلت بهم في الملك والملكوت، فعلمني كما علمتهم، وفهمني كما فهمتهم، واجعل تعليمك لي تعليم هداية وترق، لا تعليم ضلال ونزول، حتى لا أكون كذلك الذي علمته، فراح يستغل ما آتيته من العلم في تضليل خلقه، فنزلت به من قمة الهداية إلى هاوية الضلال، وقلت فيه: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف: 175، 176]

إلهي أنت حسبي مربيا.. وكيف لا تكون حسبي وأنت رب العالمين.. فآت يا رب (نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها) (1)

---

1() رواه مسلم رقم (2722)

يا رب.. لقد عجزت عن تطهير نفسي الأمارة بالسوء، فكن أنت المطهر لها.. واملأها بالفضائل التي ارتضيتها، وأبعد عنها الرذائل التي مقتها.. وكن أنت مربيها ومؤدبها ومهذبها، حتى تصبح صالحة لتجليات جمالك وكمالك.

يا رب.. وأنت حسبي في رزقي.. وكيف لا تكون حسبي.. وأنت الرزاق ذو القوة المتين.. وكل مقاليد الرزق بيدك.. وقد قلت في كلماتك المقدسة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 56 - 58]

يا رب.. وأنت حسبي على أعدائي، والمتربصين بي، والمضمرين لي السوء.. فاكفني بقوتك، وحل بينهم وبيني بقدرتك، حتى لا يصلوا إلي، كما فعلت ذلك بنبيك، فقلت في كلماتك المقدسة:{وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } [يس: 9]

فاجعل ـ يا رب ــ كيد أعدائي في نحورهم، وقني وق عبادك الصالحين والمستضعفين من شرورهم.

يا رب.. فاستجب دعائي، وأغنني بك عن سواك، حتى لا أُذل نفسي لغيرك، وكيف أذلها وأنت العزيز الذي لا يعز إلا من استعز به.

وكيف أذلها، وأنت الذي تكفي كل من قصدك، ولا ترد من طلبك، ولا تحجب من التجأ إليك، ولا تبعد من تقرب منك.

# الطبيب الشافي

إلهي.. أيها الطبيب الشافي.. يا من اسمه دواء، وذكره شفاء.

يا من إذا ما اعترتنا العلل، وتنزلت علينا الأدواء، وفتكت بنا الأمراض، لجأنا إليه، فشفى صدورنا من الهم والغم.. وشفى أبداننا من النصب والوصب.. وشفى حقائقنا من الكروب والعيوب.

نحن نعلم ـ يا رب ـ أنك غني عن أن تصيبنا الأمراض، فإبداعك العظيم لا يعجز عن أن يخلق جسما لا يمكن لأي شيء أن يؤثر فيه، لكنك يا رب لم تفعل ذلك، لا لقسوتك على خلقك، وإنما لرحمتك بهم.. فتلك الأمراض، وإن فتكت بأجسادهم، فقد فتكت قبل ذلك بغرورهم وكبرهم.. وهي بذلك أصابت جزءا بسيطا منهم، وهو أحقر أجزائهم، لتحفظ الركن الحقيقي الذي تتكون منه ذواتهم.

يا رب.. فأنت الغني عن أن تصيبني الأدواء، وأنواع البلاء، فعافني منها بكرمك، وارزقني حسناتها من غير أن تذيقني ويلاتها.

يا رب.. لقد كان من فضلك العظيم على خلقك أنك ما أنزلت عليهم داء إلا أنزلت معه الدواء الذي يعالجه، ليعرفوا أن كل شيء منك، وأنه بيدك مقاليد كل شيء.. مقاليد الصحة والمرض.. ومقاليد العافية والبلاء.. وكل ذلك ليعودوا إليك، وليتعرفوا عليك.. فأنت هو الدواء الأكبر، وأنت هو المطلوب الأعظم.

وأنت يا رب.. بفضلك ومنك وكرمك.. تجازي المريض الذي تحمل البلاء، وصبر على اللأواء، بما هو أعظم من الدواء، وهو ذلك الفضل العظيم الذي أتحته له، بتكفير خطاياه، وتطهير نفسه من كل الأدران التي أنزلتها به جراثيم العافية.

يا رب.. لقد ذكرت لنا في كلماتك المقدسة قصة عبدك الصالح أيوب.. ذلك الذي اعترته الأمراض، فلجأ إليك، وصرخ باكيا بين يديك، فأنجدته، وأنقذته، وأرسلت عليه من برد عافيتك ما أعاد إليه صحته، ومعها كل ما ضاع منه.

يا رب.. فكما رحمته، فارحمنا، وكما شفيته فاشفنا، وكما أنزلت عليه برد عافيتك ولطفك.. فأنزل علينا برد عافيتك ولطفك {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } [طه: 33 - 35]

إلهي جل عطاؤك أن يحتاج إلى دعائي، فأنت أكرم الأكرمين، وأنت الذي تعطي من سألك، وتبادر من لم يسألك.. فأسألك يا رب من جميل العافية، وحسن اللطف ما تداوي به أدوائي التي لا أعلمها، وآفاتي التي لا أراها، ونقصي الذي لا أستطيع سده.

إلهي.. وأسألك أن تعالج أمراض نفسي التي هي أخطر من أمراض جسدي.. فطهر نفسي من كل ما يصرفني عنك، ويجعلني بعيدا عنك.

طهرني ـ يا رب ـ من العجب والغرور والكبر والسمعة والرياء والجبن والبخل وكل الأمراض التي تفسد فطرتي، وتمنع الحقائق من أن تتنزل على قلبي.

وأسألك ــ يا رب ــ أن تعالج عقلي، وتطهره من تلك الحجب التي تحول بينه وبين إدراك الحقائق، حتى يعبدك عن علم لا عن جهل، وعن قناعة لا عن تقليد، وعن يقين لا عن وهم.

وأسألك يا رب أن تعالج روحي من التثاقل إلى الأرض، والنزوع إلى النزوات، والشره للدنيا.. فاجعلها يا رب مقبلة عليك، قابلة بك، راضية بصحبتك، مستغنية عمن سواك.

وأسألك يا رب أن تعالج لساني من كل الآفات لتجعله كألسنة رسلك وأنبيائك وأوليائك، مليئا بذكرك وشكرك، لا يتكلم الكلمة إلا بعد أن يزنها بموازين الحق، فلا ينطق بغيبة ولا نميمة ولا فحش ولا بذاءة.. بل يكون طاهرا كطهارة الحقائق، جميلا كجمال آثارها.

وأسألك يا رب أن تعالج جميع جوارحي من كل ما يفتك بها من أدواء الظاهر والباطن، والحس والمعنى، حتى تؤدي ما كلفت به من وظائف، وحتى لا تصبح نعمتك علي بها وبالا علي وعليها.

وأسألك يا رب أن تملأني من العافية ظاهرا وباطنا حتى أقدم عليك طاهرا كما خلقتني، قد حفظت الأمانة وصنتها، ولم أفرط في السير إليك، ولا الإقبال عليك.

إلهي.. أيها الطبيب الشافي.. جـل اسـمك من أن تكـون كأولئك الأطباء الـذي وهبتهم بعض المعـارف، ليعـالجوا بعض الأدواء.. فأنت تعالج كل شيء، وبلمح البصر، ومن غير حاجـة إلى دواء، لأنك أنت الدواء.. أنت الطبيب، وأنت الدواء.

فاجعلني يا رب منشغلا بك، وبذكرك، والأنس بك، حـتى ينصرف عني كل ما يؤلمـني أو يبعـدني أو يحجبـني أو يحـول بيني وبينك.

# المولى النصير

إلهي.. يـا {نِعْمَ الْمَـوْلَى وَنِعْمَ النَّصِـيرُ} [الأنفـال: 40].. ويا نعم الحفيـظ ونعم المقيت.. يـا من حوائجنـا تقضـى كلهـا بكرمه.. ومخاوفنا كلها يقضى عليها بنصره.

أنت يا رب من نصـرت أنبيـاءك وأوليـاءك على أعـدائهم حين تربصــوا بهم؛ فأمــددتهم بجنــدك، وحفظتهم بحفظــك، ونصرتهم مع ضعفهم وقلة عددهم وعتادهم.

بـل كنت أنت الـذي قاتـل معهم، وقـد قلت في كلماتـك المقدســة: {فَلَمْ تَقْتُلُــوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَــا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: 17]

أنـا أعلم ــ يـا رب ــ أن الغـافلين عن أسـرار كلماتـك.. الـواقفين مـع المبـاني دون المعـاني، سـيتعجبون من هـذا.. ويقولون: كيف يمكن أن يكـون هـذا.. وأنت القـادر على كـل شيء؟

ولم يعلموا أن قولك ذلك لا يعني سـوى تأييـدك لأولئـك المؤمــنين الطــاهرين المستضــعفين الــذين همّ أعــداؤهم باستئصالهم، فاسـتأذنوك في قتـالهم، فـأذنت لهم، ثم علمت بـأن نفوسـهم الطـاهرة قـد تتحـرج من القتـال، ولا تستسـيغ إزهاق الأنفس، فذكرت لهم أن قتلهم لم يكن بأيـديهم، وإنمـا كان بيدك، وأن ما حصل لهم لم يكن مرتبطـا بأحقـاد يحملهـا المؤمنون، وإنما هو مرتبط بعـدالتك وسـننك وقوانينـك الـتي نظمت بها الكون.

وإلا فإنــك أعظم من أن تحتــاج إلى الــرمي، ولا إلى القتل، ولا إلى إرسال المدد من الملائكة، فـأنت الـذي تقـول للشــيء: كن فيكــون.. وأنت الــذي أمــرك { وَاحِــدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50]

فَأسـألك يـا رب.. كمـا أمـددتهم بقوتـك ومـددك من الملائكة أن تمدني بما أمـددتهم، وأن تحفظـني بمـا حفظتهم حتى أنصرك كما نصروك، وأحمي جناب الحق كما حموه.

يا رب.. أنا أعلم أن إذنك في قتـال المعتـدين الظـالمين المسـتكبرين لم يكن نابعـا سـوى من بحـر رحمتـك الواسـعة ولطفك العظيم..

فأولئك المجرمون العاشقون للدماء، لا يمكنهم أن يرتدعوا بموعظة، ولا بحكمة، ولا بحجة، ولا بحوار، ولا حتى بمعجزة.. وإنما يرتدعون بالسيوف التي تقابل سيوفهم، والرماح التي تقابل رماحهم.

ولذلك أمرتنا بالإعداد، وطلبت منا أن نهيئ أنفسنا لنكون جنودا للحق، حتى نقاتل أولئك الذين سخروا أنفسهم للشياطين، وعبدوهم من دون الله، ولذلك أمرتنا بقتالهم كافة فقلت: { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة: 36]

يا رب.. أنا أعلم أنك لم تأمرنا بقتلهم لذواتهم.. ولا لأجل عقائدهم.. ولا لأجل ما اختاروه لأنفسهم.. فأنت قد أخبرتنا في كلماتك المقدسة أنك لا تقبل من الدين إلا ما خلص لك، وكان عن رغبة فيك، وليس عن رهبة من غيرك، وأنه {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } [البقرة: 256]

وإنما أمرتنا بقتالهم ـ يا رب ــ لأجل شركهم المرتبط بنصرة مشروع الشيطان في حرب الإنسان.. وهو مشروع لا يكتفون فيه بالكلمات، ولا بالمواقف، وإنما يستعملون كل ما أطاقوا من أدوات الشيطان لتخريب بنيان الإنسان الذي أمرت بحفظه، ولعنت من تعرض له.

يا رب.. فاجعلنا من جنودك الذي يقاومون جنود إبليس، ويحاربون الاستعمار والاستعباد والاستذلال والاستكبار.. وكل أصناف الطغيان.. حتى ننصر الإنسان في حربه مع الشيطان.

يا رب.. وكما نصرت الصالحين من عبادك على أنفسهم وأهوائها، فانصرنا على نفوسنا، وطهرنا من كل هوى يحجبنا عنك، ويملأ نفوسنا بما يبعدنا عنك.

يا رب.. نحن عبيدك المستضعفون، وأنت تعلم عجزنا عن نصر أنفسنا في الباطن والظاهر.. والداخل والخارج.. ومع شياطيننا وأهوائها.. ومع أعدائنا المتربصين بنا، والمترصدين لنا.. فكنت أنت مددنا ونصرنا.. واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا، حتى ترتد جميع سيوفهم ورماحهم إلى صدورهم، ولا ينالون منا، وكيف ينالون منا، وأنت مولانا، والحافظ لنا.

يا رب.. واحفظ جميع المستضعفين الذين تكالب عليهم

الأعـداء، وأذاقـوهم كـل ألـوان الهـوان.. فانصـرهم يـا رب بنصرك العاجل.. وأمددهم بمـددك الكـريم.. واجعـل لهم من عندك فرجا ومخرجا.

يـا رب.. أنـا أعلم أن كـل ذلـك الهـوان الـذي يصـيب المستضعفين لم تأذن فيـه إلا لتختـبر من يقـف معهم، أو من يقف ضدهم، أو من يقف في الحياد مؤثرا لنفسه وهواه.

وأنك ـ يـا رب ــ سـتكرم المستضـعفين بكرمـك العظيم في هـذه الـدنيا، أو في الآخـرة، أو في كليهمـا.. فلـذلك مـع حزني عليهم أغبطهم، لأني لا أنظر إلى حالهم في هذه الدنيا الفانية، وإنما أنظر إليهم، وهم في الآخرة الباقية.

يا رب.. كلما رأيتهم تذكرت ما نطق به نبيك حين خبرنـا عن حقيقة المصير الذي يصيرون إليه، والمصـير الـذي يصـير إليه أعداؤهم، فقد قال لنا: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثـواب لـو أن جلـودهم كـانت قرضـت في الدنيا بالمقاريض) (1)

وقص علينا قصص جنتك ونارك، فقـال: (تحـاجت الجنـة والنار، فقالت النار: أوثـرت بـالمتكبرين والمتجـبرين، وقـالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضـعفاء النـاس وسـقطهم؟ فقـال اللـه عـز وجـل للجنـة: أنت رحمـتي أرحم بـك من أشـاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشــاء من عبادي) (2)

يا رب.. يا نصير المستضعفين.. يـا قـاهر المسـتكبرين.. اجعلـني في حـزب المستضـعفين، فهم حزبـك الـذين أذنت بغلبتهم على أعــدائهم، فقلت: {وَمَنْ يَتَــوَلَّ اللَّهَ وَرَسُــولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: 56]

واجعلني من أنصـارك الـذين أذنت بنصـرك لهم، فقلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُـوا أَنْصَـارَ اللَّهِ كَمَـا قَـالَ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ لِلْحَـوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَـارِي إِلَى اللَّهِ قَـالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَـآمَنَتْ طَائِفَـةٌ مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ وَكَفَـرَتْ طَائِفَـةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } [الصــف: 14]

---

1() الترمذي كتاب الزهد رقم (2403)

2() رواه البخاري (4850)، ومسلم (2846)

يـا رب.. واجعلنـا ممن ينصـر المستضـعفين، وفي كـل مكان، ويحارب المستكبرين، وفي كل مجال، لينفذ بـذلك مـا أمرتنـا بـه، فقلت: {وَمَـا لَكُمْ لَا تُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: 75]

ونعوذ بك يا رب أن نكون جندا في رايـة عميـة جاهليـة، تنتصر للأهـواء، وتنشـر الأحقـاد، وتقتـل البشـر لأجـل الحجـر والشـجر.. أولئـك الـذين وصـفتهم، وأمرتنـا بقتـالهم، فقلت: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء: 76]

يا رب.. ونسـألك أن تختم حياتنـا بالشـهادة في سـبيلك، حتى تكـون توقيعـا لصـدقنا، وخاتمـة لجهادنـا.. وحـتى نلقـاك ومعنا برهان الإيمان واليقين.. فـأنت أكـرم الأكـرمين، وأرحم الراحمين.

# المعطي المانع

إلهي.. أيهـا المعطي المـانع.. لا معطي لمـا منعت.. ولا مـانع لمـا أعطيت، فمفـاتح كـل شـيء بيـدك، وتصـريف كـل الأمور إليـك.. فمـرحى لمن تشـرف بطلب عطائـك.. وتعسـا وذلة لمن أهان نفسه لغيرك.

يا رب.. لـو أن كـل الخلائـق تحولـوا إلى ألسـنة سـائلة، وسألوك من كل شيء، لأعطيت كـل واحـد منهم مـا يشـتهي من غير أن ينقص من بحر عطائك قطرة واحدة.

وكيف ينقص بحر عطائك، وأنت الذي تقول للشـيء كن فيكون.. بـل لا تحتـاج لأن تقـول لـه ذلـك.. فيكفي أن تتوجـه إرادتك النافذة، ومشيئتك الحاكمة، ليتحقق ما تريد، وفي أقل من لمح البصر.. فلا وجود للزمان معك، ولا وجود للمسـتحيل مع قدرتك وفضلك وعظمتك.

إلهي أنا أعلم أن التقتير الذي قد نراه في بعض شـؤون حياتنا، ليس إلا من مقتضيات منعك الـذي هـو عطـاء.. فـأنت تمنعنا ما يضرنا، وبذلك يتحول المنع إلى عطاء ينفعنا..

أنت تمنعنا ـ يـا رب ــ أن نلين للـدنيا أو نسـكن إليهـا أو نتثاقل إلى أهوائهـا.. ولـذلك تقـتر علينـا من الـرزق، أو تقـدر علينا من الحاجة ما يعيدنا إليك.. وأنت الغني الذي من وصـل إليه استغنى عن كل شيء.

إلهي.. أعـوذ بـك أن أنظـر إلى ذات عطائـك، فـأُحجب عنــك، وأصــبح عبــدا للعطــاء لا للمعطي، وأنــا لا أريــد إلا المعطي، فالعطاء ينفذ، والمعطي باق..

إلهي لقد سألك عبدك الصالح موسى خـبزا يأكلـه، وبيتـا يؤويه، وقال لك بكـل تواضـع بعـد أن أجهـده الجـوع والتعب: { رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْـزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْـرٍ فَقِـيرٌ } [القصـص: 24]، فأرسـلت إليـه بمجـرد انتهـاء قولـه ذلـك الطعـام الطيب، والمسكن الآمن، والجوار الصالح، والأنيس الحنون.

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح سليمان أن تهبه ملكا.. فوهبته الملك على البشر والشياطين وجميع الأحياء.. ووهبته القدرة على فهم كلامهـا، والتعـرف على مشـاعرها، والتحكم فيها.. بل سخرت له فوق ذلـك { الـرِّيحَ تَجْـرِي بِـأَمْرِهِ رُخَـاءً

حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ } [ص: 36 ـ 38]، ثم فوضته بأن يفعل في ملكه ما يشاء، وقلت له: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [ص: 39]، بل وعدته فوق ذلك بالمزيد الذي لا يساوي معه ما أعطيته شيئا، فقلت: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص: 40]

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح أيوب أن تهبه الصحة والعافية.. فلم تكتف بذلك.. بل أضفت إليها ما ذكرته في كتابك، فقلت:{وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [ص: 43]

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح زكريا الولد.. وبمجرد أن انتهى من طلبه سمع كلماتك الخالية من الحروف والأصوات تردد في آذان قلبه: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} [مريم: 7]

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح إبراهيم أن تهبه لسان صدق في العالمين، فأصبح مذكورا في كل الأزمنة، وكل الأمكنة، وكل الأديان.

يا رب.. ونحن عبيدك الضعفاء السائرون على خطى الأنبياء والأولياء.. فهب لنا من جميل عطائك ما وهبتهم، واكسنا بجميل فضلك ما كسوتهم.. وامنع عنا كل ما يؤذينا كما منعت عنهم كل ما يؤذيهم.

يا رب.. نسألك من كل خير سألوك منه.. ونعوذ بك من كل شر استعاذوا بك منه.. نسألك أن تعلمنا كما علمتهم، وأن تفهمنا كما فهمتهم.. ونسألك أن ترزقنا ذلك اليقين الذي رزقتهم، فقضوا حياتهم كلها في جوارك، متنعمين بصحبتك، متلهفين للقائك.

يا رب.. لقد ذكرت في كلماتك المقدسة أصناف عطائك، فقلت: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: 18، 19]

ثم أعلمتك بسننك في ذلك، فقلت: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء: 20]

ونحن نعوذ بك يا رب من أن نكون من ذلك الصنف الذي لم يرد إلا العاجلة، وضحى بحياته الأبدية من أجلها.. ذلك الذي وصفته في كتابك، فقلت: {مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } [البقرة: 200]

بل نسألك أن نكون كذلك الذي علم أن لك الملك في الدارين، وأن الذي يقصدك لا يرجع خائبا.. فلذلك طلب منك الدنيا والآخرة، ذلك الذي وصفته فقلت: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة: 201]

يا رب فهب لنا الدارين، ولا تشغلنا فيهما عنك.. بل اجعل ما تهبنا من فضلك، وما ترزقنا من عطائك معارج نمتطيها لنرحل بها إليك..

يا رب نسألك أن تجعل نعمك علينا كما جعلتها على أنبيائك وأوليائك الذين لم تبطرهم النعم، ولم يستكبروا بها، ولم يفرحوا ذلك الفرح الكاذب، بل فرحوا بك، وبفضلك، كما قلت لهم، وكما علمتهم: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: 58]

يا رب.. وأسألك أن تحفظ لي ما أعطيتنيه بحسن ثنائي عليك، وشكري لك.. فقد أخبرتنا في كلماتك المقدسة أن الشكر صمام النعم وحافظها..

ونسألك يا رب أن تعلمنا كيف نثني عليك، وكيف نشكرك ونمجدك، وكيف نستعمل ما أنعمت به علينا في سبيلك، وابتغاء مرضاتك.. إنك أنت أكرم الأكرمين.

# الكبير المتعال

إلهي.. أيها الكبير المتعال.. يا صاحب الوجود الأزلي الأبدي الدائم.. يا من تنزهت عن كل نقص، وتقدست عن كل ضعف، وتعاليت عن كل ما لا يليق بجلالك وجمالك وكبريائك.

لقد رحت أبحث في كل شيء خلقته، فوجدته صغيرا بجنبك.. بل لا يساوي شيئا.. بل هو صفر محض.. أو وهم خالص.. فكل شيء إذا ما قورن بك، ووضع أمامك تحول إلى عدم ووهم وسراب.

وكيف لا يتحول إلى ذلك، وهو لا يملك إلا وجودك.. فلولا وجودك لم يكن شيئا مذكورا.. ولولا إمدادك له في كل نفس بالوجود لعفى أثره، وانطفى نوره، ولم يبق له حقيقة ولا اسم ولا رسم.

فوجود كل شيء ــ يا رب ــ من وجودك.. وكمال كل شيء ذرة من محيطات كمالك.. وجماله ذرة في بحر جمالك..

فهنيئا لمن عرف أنك أنت الأكبر.. وأن من انتسب إليك فقط هو الذي يحق له أن يفرح ويفخر.. لأنه ينتسب إلى المتعال الأكبر.. ذلك الذي لا يعرف وجوده العدم، ولا يعرف كماله النقص، ولا يعرف عطاؤه البخل، ولا يعرف جماله الدمامة.. فكما أنك يا رب الأكبر.. فكل صفاتك الأكبر..

فأنت ـ يا رب ـ الأعلم الذي لا يضاهيك أحد في علمك.. وكيف يضاهيك وكل علوم الخلائق ذرة من محيطات علومك، وكلها منك، وأنت الذي ألهمتهم إياها، ولولاك لكانوا جهلا محضا..

لقد ذكرت ذلك يا رب في كلماتك المقدسة فقلت: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78]

فويل لأولئك الذين حُجبوا عنك بتلك الحروف التي تعلموها في مدرستك، ولولا تعليمك لم يتعلموا، ولولا قدراتك التي وهبتهم ما استطاعوا أن يفهموا شيئا.. لكن فرحهم بما حصلوه من العلم، وتكبرهم عليك طردهم من مدرستك، وحجبهم أن يتعلموا العلوم الحقيقية منك، فاكتفوا من

تعليمهم بظاهر الحياة الدنيا، وبالغفلة عنك، وقد قلت تصف علمهم: { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: 7]

يا رب.. فأعوذ بك أن أزهو بما ألهمتني من علومك، أو أفرح بها دونك.. فاحتفظ بي تلميذا في مدرستك، وعلمني علوم الظاهر والباطن، حتى أعرف الحقائق منك، فأنت المعلم الأكبر الذي من لم يتعلم في مدرسته ظل جاهلا، ولو درس عند كل علماء الدنيا، وفي كل جامعاتها.

وكما أنك الأعلم يا رب.. فأنت الأقوى الذي يضعف أمامه كل شيء.. فأنت أقوى من كل أعدائي وأعداء المستضعفين، وأنت القادر على أن تبيد خضراءهم بطرفة عين.. لكنك تمهلهم، ولا تهملهم.

تمهلهم لعلهم يتوبوا ويتواضعوا ويرجعوا إليك، ويعرفوا أنك أنت الأكبر، وأنك أنت الأقوى.. وتمهلهم حتى تميز بين من يكبرونك ومن يكبرونهم.. ومن يعظمونك ومن يعظمونهم..

فاجعلني أراهم كما أرى الذباب والبعوض في جنب قوتك، واحفظ قلبي من أن يرتجف هيبة لهم، وكيف يرتجف، وهو مستند إلى ركنك الشديد الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إلهي.. وأنت الأرحم والأكرم والألطف.. أنت الذي لو اجتمع حنان كل الأمهات، ورحمة كل الآباء، ولطف كل اللطفاء لما عدل نقطة من بحر رحمتك وكرمك ولطفك.

إلهي.. وأنت الأقدر الذي لا يعجزه شيء.. ولو أن قدرات كل الخلائق اجتمعت لما عدلت ذرة من قدرتك.. وكيف تعدل ذلك، وقدرتهم من قدرتك، ووجودهم من وجودك.

إلهي.. وأنت الأجمل الذي لو اجتمع كل جمال الكون لما عدل ذرة من بحر جمالك.. وكيف يكون له ذلك، وجماله من جمالك، بل إن كل شيء مرآة لبعض بعض جمالك الذي لا حدود له.

إلهي.. وأنت المبدع.. ولو اجتمع كل فناني الدنيا والآخرة لما بلغوا ذرة من بحر ذوقك الرفيع، وفنك البديع،

وتصميمك الرائع.. وكيف يقارنون بك، وإبداعهم من إبـداعك، وفنهم ذرة في بحر فنك.. بل فنهم منك وبك.

إلهي.. فهب لي من جميـل فضـلك مـا يرفعـني عن السفاسف، حتى ترتفـع همـتي إليـك.. فلا يليـق بمن انتسـب للأكـبر أن يكـون أصـغر.. ولا يليـق لمن حضـي بالشـرب من كأس جمالك أن يكون صاحب همة دنية، أو نفس غير أبية.

إلهي.. أعـوذ بـك أن تحجبـني بأولئـك الصـغار الـذين لا يساوون أمام جلالـك شـيئا.. فـأنزل بـذلك عن الكمـال الـذي هيأته لي.. والكبر الذي أتحته لي.. ذلك الكبر الـذي لم يُنغص بالكبرياء، ولم يُعكر بالـدناءة، وإنمـا زين بالتواضـع والعبوديـة والذلة.

إلهي.. وأسألك وأنت الكبير المتعال، أن تنزهني من كل قصور يحول بيني وبينك، ومن كل كمال وهمي أفـرح بـه، ثم أحزن لإبعاده لي عنك.

يـا رب.. فاجعـل همـتي كبـيرة عاليـة حـتى لا تتطلـع إلا إليك.. فأنت أرحم الراحمين، وأنت الكبير المتعال.

# الصمد الودود

إلهي.. أيها الصمد الودود.. الذي يفيض عطاياه على كل الوجود.. بالحدود وفوق الحدود..

أنت موئـل الطـالبين، ومقصـد المسـتغيثين، وملجـأ المتحيرين، ومنبع العطاشى الظامئين..

أنت يـا رب من ترتفـع لـه الأيـادي بالسـؤال، وتضـج لـه الأصوات بالدعاء، فيسمعها جميعا، ويلبيها جميعا..

أنت يـا رب صـاحب الجـود العظيم.. والعطـاء الكـريم.. والقـدرة المطلقـة.. والإرادة النافـذة.. والعلم الواسـع.. والرحمة التي وسعت كل شيء.. ولذلك لا تضيق بالسـائلين، بل تفرح بهم، بل ترسل لهم من أنواع الرسـل مـا يسـتحثهم إليك، ويدعوهم لدعائك.

يا رب.. ماذا عساي أقول لك، وأنت ترى فقري وفـاقتي وحـاجتي الـتي لا يلبيهـا إلا غنـاك المطلـق.. فأغـدق علي من كرمك ما يسد حاجـاتي، ويرفـع فاقـاتي، ويجعلـني عبـدا لـك وحدك.

يـا رب.. وأنت تـرى جسـدي الضـعيف المتهالـك.. وأنت الطبيب الشافي الذي يملك كل أنواع الـدواء، ويشـفي جميـع أنواع العلل.. فاشفني وعافني وقوني.. حـتى أتمكن من أداء ما كلفتني به من وظائف، وأنعم بالحياة الطيبة الـتي وعـدت بها المؤمنين بك.

يا رب.. وأنت ترى جهلي، فعلمني.. وأنت ترى كسـلني، فنشطني.. وأنت ترى همتي الدنية فارفعهـا.. وارفعـني معهـا إليـك حـتى تكـون مقصـودي الأعظم الـذي يهفـو لـه قلـبي، وتشتاق له نفسي، وتسكن إليه روحي.

يا رب.. لقد دعوتنا في كلماتـك المقدسـة لأن نكـثر من التضرع إليك، والاستغاثة بك، ووعـدتنا بالإجابـة، فقلت: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ} [البقرة: 186]، وها نحن ندعوك يا رب كما أمرتنا، فاسـتجب لنا كما وعدتنا.

يا رب.. لقد ذكرت في كلماتـك المقدسـة أولئـك الـذين تكبروا أن يرفعوا أيديهم إليك مع أن عنـدك الحـل لجميـع مـا

نزل بهم من أنواع البلاء، فقلت: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 42ـ 43]، ونحن نعوذ بك يا رب أن نكون مثلهم، فتقسو قلوبنا بتركنا لك، ورغبتنا عنك.

يا رب.. فاجعلنا ندعوك في كل أحوالنا، حتى في طلب ملح بيتنا، فأنت رب كل شيء، ولولاك لم يصل شيء لشيء.

يا رب.. أيها الصمد الأعظم نعوذ بك أن نكون كأولئك الذين قصرت أنظارهم، وعميت بصائرهم، فانشغلوا بالدعاء لدنياهم، وأهملوا آخرتهم.. أولئك الذين ذكرتهم فقلت: { مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة: 200]، وذكرت غيرهم من الصالحين فقلت: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [البقرة: 201، 202]

فنسألك يا رب.. يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أن تنزلنا في منازل فضلك وجودك مع أنبيائك وأوليائك حتى لا نرى من أهوال الآخرة ما يراه الغافلون الجاحدون.

يا رب.. وإن توفيتنا في الآجال التي حددتها لنا، وبعد أدائنا لكل ما كلفتنا به من تكاليف، فانقلنا بجودك العظيم من الدنيا مباشرة إلى فيض فضلك وجودك وجنانك الواسعة التي نقلت إليها أولياءك؛ فلم يذوقوا من الآلام، ولم يروا من الهوان ما رآه العصاة الغافلون المستكبرون.

يا رب.. أنت الواسع الذي لا يضيق بفضلك شيء.. وأنت الكريم الذي يتسع جودك لكل السائلين.. وأنا عبدك الذي يبسط إليك يديه بكل أنواع السؤال من غير أن يعتريه ذلك الحياء أو تلك الهيبة التي تصيبه عند سؤال غيرك..

وكيف تصيبني الهيبة أو الحياء، وأنا أقصدك يا رب.. وأنت الجواد الأعظم، والصمد المطلق الذي لا يرد من تضرع إليه، ولا يصد من استغاث به.

يا رب.. وكما حركت قلبي ولساني لسؤالك.. فعلمني الأدب معك حتى لا يجرني البسط والأنس الذي وفرته لي إلى عدم توقيرك وتبجيلك وتقديسك.

فـأنت تعلم يـا رب.. أن سـؤالي لـك ولـو في أبسـط الشـؤون نـابع من تعظيمي لحضـرتك، وتبجيلي لـذاتك، واعتقادي في أسمائك الحسـنى، وصـفاتك العليـا.. فأنـا أعلم أن كل شيء منك وبك ولـك.. ولـذلك أرى المغبـون من يمـد يده إلى غيرك، وهل هناك أكرم منك حتى تمد الأيادي له؟

يا رب.. أيها الصمد الودود الذي يعطينا من فضله بمحبة ورحمة وحنان، فلذلك لا يضيق بمن أعطاهم، بل يضـيف إلى عطائهم الحسي عطاءه المعنوي، وينقلهم من أنفسهم إليـه، ومن الحاجات التي طلبوها منه إلى أعظم نعمة في الوجـود، وهي نعمة القرب منه والأنس به والمحبة له.

يا رب.. فنسـألك أن تكـون مقصـودنا ومحبوبنـا وأنيسـنا الأعظم حتى لا ننشـغل بمـا أعطيتنـا عنـك، فتكـون عطايـاك حجابا لنا دونك.

يـا رب.. نسـألك أن تكـون أنت الصـمد الـذي نقصـده.. وأنت الحاجة التي نطلبها.. فمن وجدك وجد كل شـيء، ومن فقدك فقد كل شيء.. وما الذي وجد من فقـدك.. ومـا الـذي فقد من وجدك؟

# الأول والآخر

إلهي.. أيها الأول والآخر..

أنت يا رب.. من يجثو الزمان بين يديك كما يجثو المكان وكل شيء عبدا خاضعا ذليلا، لا يملك من أمره شيئا.

يا من سبق الكل، ولولاه لم يكن شيء.. ومن لم يعرفه لم يعرف أي شيء.. فكل شيء ـ يا رب ـ مرتبط بك ابتداء وانتهاء.. أولا وآخرا.. أنت الذي تمده بالوجود.. ولولاك لم يكن موجودا.. وأنت الذي تمده بالبقاء.. ولولاك لالتهمه العدم، واحتوته الظلمات.. فعميت تلك العين التي ترى الأشياء، ثم لا تراك معها وقبلها وبعدها.

أنت يا رب ـ بأوليتك وآخريتك ــ سر كل الأشياء.. فلا يمكن معرفتها من دونك.. وهل يمكن أن نعرف طريقا من غير أن نعرف بدايته أو نهايته؟

أنت يا رب سر تلك اللمسات الجمالية المودعة في كل جميل.. فأنت الذي هيأت لها ذلك الجمال.. وأنت الذي وفرته لها.. وأنت الذي مسحتها به.. بل إن ذلك الجمال يا رب ما هو إلا قطرة من بحار جمالك التي تبدت للكائنات ليروك من خلال مرائي الأشياء.. فأنت يا رب أول الجمال.. وملك الجمال.. وآخر الجمال.. ولولاك لم نعرف الجمال.. ولم نسبح بحمده.

يا رب.. وأنت سر ذلك اللطف المودع في الأكوان.. فأنت أول اللطف وآخره.. وبك استقر.. ومن دونك لم يكن لطف.. ومن دونك كان كل شيء غليظا قاسيا متحجرا ممتلئا بالكثافة والعتامة والظلمات.

يا رب.. وأنت سر كل الحقائق، بك تبدأ، وإليك تنتهي.. ومن زعم أنه عرف الحقائق من دونك، فهو أجهل من الجهل.. لأنه لا حقيقة لشيء من دونك.. فكل الحسيات والمجردات.. وكل الملك والملكوت.. ملك لك.. أنت أوله وآخره.. ولولاك لم يكن شيئا مذكورا.

فكيف يجري عليك الزمان يا رب.. وأنت الذي خلقت الزمان.. وما الزمان إلا عبد من عبيدك سلطته على عبادك ليعرفوك، ويعظموك، وينزهوك، ويعرفوا الفرق بينهم وبينك..

فلا يمكن أن ينزهــك أو يقدســك من يضــعك في مقــاييس العقول، وأوهام الخيال.

يــا رب.. جهــل من حــدك بحــدود الزمــان والمكــان والأوهــام.. أو علم أن هنــاك من يشــبهك.. أو أنــك يمكن أن تشبه أحدا.. فأنت العظيم الأعظم.. القدوس الأكمــل.. الــذي لا حدود لقداسته ولا لكماله.

يا رب.. وكما تنزهت عن الزمان.. فنزهنا عنــه.. واجعــل بصائرنا تعيش في بحار الأزلية، غير مقيدة بالأوقات.. لتســجد قلوبنا لك سجدة أبدية لا تقوم بعدها أبدا.

يــا رب.. أنت الــذي نــزهت أنبيــاءك وأوليــاءك عن تلــك القيود.. فهامت أرواحهم في بحار أزليتك وأبــديتك، وتخلصــوا من كل تلك القيــود الــتي تحــول بينهم وبين الغــرق في بحــار الجمال المطلق، والكمال المطلق.

يا رب.. فكمــا نــزهتهم فنزهنــا.. وكمــا قدســت أرواحهم فقدس أرواحنا.. فأنت تعلم أنه وإن قصرت خطانــا عن بلــوغ خطاهم إلا أن قلوبنــا ممتلئــة بمحبتهم وتقديســهم وتعظيمهم كما أمرتنا..

يا رب.. وكما خلقت الزمان لنــا قيــودا.. فقــد خلقتــه لنــا نعمة.. وقد قلت في كلماتك المقدسة تشير إلى ذلك: {وَهُــوَ الَّذِي جَعَــلَ اللَّيْــلَ وَالنَّهَــارَ خِلْفَــةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَــذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: 62]

فاجعلنا يا رب.. نبتهل كل لحظة من الزمان الذي وفرته لنا، حتى نغنم فيه بغنائم الأبد.. تلك الغنائم الــتي لا يمكن لأي عدو أن يسلبها منا.

يا رب.. أنت الذي بيدك ناصية الزمان تبارك فيمــا تشــاء منه.. وقد جعلت ليلة القدر خيرا من ألــف شــهر.. فاجعــل يــا رب كل أيامنا ولياليا ليــالي قــدر مباركــة نســعد فيهــا بغنــائم الأزل والأبد.. لنرحل بهــا إليــك.. ونمتطيهــا في ســفرنا الأزلي إلى رحاب جمالك الذي لا حدود له.

يا رب.. وبارك لنا في أوقاتنا حتى تكون كلها لك.. وحتى لا تصيبنا تلك الحسرة التي تصيب المسوفين وأصحاب الأمل الطويل عندما يعاينون جميل فضلك، ويعاينون معه تقصيرهم وتسويفهم وتفريطهم.. إنك أنت أرحم الراحمين.

# الظاهر والباطن

إلهي.. أيها الظاهر والباطن.. يا من ظهر في كل شيء، ولكل شيء، ولم يحجبه أي شيء.. وبطن في ظهوره عن كل شيء، فلا تدركه الأبصار، ولا الأوهام، ولا العقول.. فهو لا يزال في غيبه المطلق محجوبا عن الإدراك والإحاطة، ولولا أسماؤه الحسنى ما عرفناه، ولا استدللنا عليه.

يا رب.. لقد تأملت في المعاني التي يحملها هذا الاسمان المقدسان من أسمائك، فامتلأت بمشاعر، جميلة لا يمكن وصفها..

فأنت يا رب أقمت لنا بظهورك بأسمائك الحسنى، وتجلياتك العظمى كل الحجج التي تدل عليك، والتي لا يحجب عنها إلا الغافلون.. ففي كل قطرة مطر، وموجة بحر، ونسمة هواء رسالة من الرسائل الدالة عليك، وحرف من الحروف التي تصفك، وتصف عظمتك، وقد قلت مشيرا إلى ذلك في كلماتك المقدسة: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم: 50]

وقلت مشيرا إلى إمساكك للسموات والأرض أن تزولا: { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: 41]

وقلت مشيرا إلى آياتك الكثيرة الدالة عليك، والتي لا نهاية لها، ولا لدلالاتها: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة: 164]

وأمرت أولئك المحجوبين عنك، وعن ظهورك، أن ينظروا إلى الأشياء بعين البصيرة، لا بعين البصر وحده، للسير منها إليك، والاستدلال بها عليك، فقلت: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَـالِ كَيْـفَ نُصِـبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية: 17 - 20]

وهكذا يا رب.. كانت كـل خليـة من خلايـا الحيـاة.. وكـل ذرة من ذرات الكـون دليلا يـدل عليـك، ومعرّفـا يعـرف بـك وبأسمائك الحسنى، وصفاتك العليـا.. حـتى صـار الكـون كلـه مـرآة لجمالـك، وظلا لعظمتـك.. وحـتى صـرت في عيـون العارفين معروفا يرونك في الأشياء قبلها وبعدها ومعهـا.. بـل إنهم من شـدة انبهـارهم بعظمتـك حجبـوا عن الأشـياء بـك.. وفنوا عنهـا بالاسـتغراق في جمالـك.. فصـاروا لا يرونهـا، بـل يرونك، وهل يمكن أن يُرى معك غيرك؟

لكنك مـع كـل ذلـك الظهـور لا تـزال باطنـا محتجبـا في سـرادقات غيبـك.. فـأنى للعقـول أن تحيـط بـك، أو تـدركك، وأنت الغيب المطلق الذي لا حدود لإطلاقه.. وهل يمكن لمن رأى قطرة من ماء البحر أن يزعم أنه رأى البحر.. أنى ذلك.. وأنت في غيبـك المطلـق بحـار لا نهايـة لحـدودها، ولا منتهى لعظمتها.

فلذلك كذب من زعم أنـه يعرفـك.. كمـا كـذب من زعم أنه يجهلك..

يـا رب.. لقـد تـوهم بعض الغـافلين أن ذلـك تنـاقض لم تستوعبه عقولهم.. ولـو أنهم رجعـوا لمـا يعرفونـه من أشـياء لأخرجوا عقولهم من تناقضها..

فهل يمكن لمن قضى عمره كله في الحساب والإحصاء أن يتـوهم أنـه قـد أحـاط بعـالم الأعـداد، أو أنـه وصـل إلى منتهاها، أو أنه أدرك نصفها أو ربعها أو عشرها..

نعم يمكنه أن يـذكر أنـه عـرف عـالم الأعـداد.. ولكن لا يمكنه أبدا أن يذكر أنه أحاط بمعرفتها.. فهي مطلقة لا نهايـة لها.. ويمكن لأي صبي صغير أن يضيف لما جمعه منهـا طيلـة حياته أضعافا مضاعفة.

لقد أشرت يا رب في كلماتك المقدسة إلى هذا، فقلت: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم: 34]

فإن كنا يا رب عاجزين عن عد الأعداد، أو إحصاء النعم، وهي خلق من خلقك، فكيف يمكننا أن نعد أسماءك، أو نحيط علما بك..

ولـذلك يـا رب كنت ظـاهرا في بطونـك.. وباطنـا في

ظهورك..
فأنت بكرمك أبرزت لنا من جميل أسمائك ما نستدل به عليك، بل ما نحجب به عن غيرك.. وأبرزت لنا في نفس الوقت ما يدل على غيبك المطلق، وعدم إمكانية الإحاطة بك، وكيف يحاط بما لا نهاية لكماله وجماله وجلاله وعظمته.
فأسألك يا رب.. أيها الظاهر الباطن.. أن ترزقنا من جميل ألطافك ما تزين به ظواهرنا وبواطننا.. حتى يكونا جميعا مرآة لتجلي جمال رحمتك ولطفك وكرمك..
ونستعيذ بك يا رب من كل الذنوب الظاهرة والباطنة التي تحجبنا عنك.. فجمالك العظيم ممتلئ بالطهارة، لا يراه من دنس ظاهره أو باطنه.
وأسألك يا رب أن تجعل ما برز منا في الظاهر من جمال لا يساوي شيئا أمام ما خفي في الباطن منه، حتى يكون الباطن ممدا للظاهر بالمدد الذي لا ينقطع.
وأعوذ بك يا رب أن أكون كأولئك المنافقين الذين اجتهدوا في تزيين ظواهرهم، فحجبوا بها عن بواطنهم، وسقطوا في الدرك الأسفل من النار لكذبهم على أنفسهم، وخداعهم لخلقك.
يا رب.. فطهر باطني وظاهري.. واملأهما بأسرار الجمال والكمال، وغذهما بتلك القيم النبيلة التي أنزلتها في كلماتك المقدسة.. حتى تكون حركاتي وسكناتي موافقة لحركات وسكنات أنبيائك وأوليائك الذين أمرتنا بالاقتداء بهم، والسير على طريقهم.
يا رب.. ونسألك أن تهبنا من رزق الظاهر والباطن ما يملؤنا بالسعادة التي لا تكدر.. فقد رأيت من الناس من أغار باطنه على ظاهره، فامتلأ بالشقاء، ولم يستطع كل ذلك النعيم الذي أنعمت به على ظاهره أن يخلصه من الكآبة والإحباط والتشاؤم الذي امتلأ به باطنه.
يا رب.. ونسألك أن تكشف لنا من لطيف فضلك ما نعرف به نعمك ظاهرها وباطنها.. فقد رأيت من الخلق من حُجب عن نعمك الباطنة التي وهبتها له، بالظاهر الذي يعيش فيه، فتوهم أنك مقصر في الإحسان إليه، مع أنه يعيش في بحار فضلك التي لم يشاهدها بسبب عشاه وعماه عن رؤية ما أودعت في باطنه من النعم التي لا حدود لها.

# رب العالمين

إلهي.. يـا من وصـفت نفسـك في كلماتـك المقدسـة، فقلت: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ} [الفاتحـة: 2]، وقلت: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف: 54]

لقد رحت أنظر في كل شيء، وأقـرؤه بمنظـار كلماتـك المقدسـة، فـامتلأت بمعـارف عظيمـة جعلتـني أرى نفسـي والكون وكل العالمين بصورة أخرى غـير تلـك الصـورة الـتي رسمها لي كل أولئك المفكرين والفلاسفة الذين انطلقوا من وحي عقـولهم، المختلـط بـأهوائهم ودنسـهم، لا من وحيـك المقدس الممتلئ بالطهارة.

لقـد كنت أرى الأشـياء ــ حين كنت تابعـا لهم ــ مفرقـة مشتتة.. لكل جهة منها كونها الخاص بها.. والذي لا علاقـة لـه بسائر الأكوان.. لكني بعد أن عرفت أنك رب العالمين صرت أرى الكون كلـه واحـدا متوجهـا إليـك.. قـد تختلـف أسـماؤه، وأصناف أفراده، وأنواع عوالمه، لكنه مثل تلك الروافـد الـتي تتجمع من سحابة واحدة، لتصب في بحر واحد.

لقـد كنت أرى الكـون تائهـا في غابـة الزمـان والمكـان المحدودين، وأنه سيأتي اليـوم الـذي تلتهم فيـه سـباع الفنـاء كل ذلك، ليتحول كل شيء إلى ظلام مطبـق.. لكـني بعـد أن عرفت أنـك رب العـالمين علمت أنـك مـا خلقت هـذا الكـون لتبيده وتزيله وتفنيه، وإنما خلقته لترفعه وتربيـه وتوجهـه إلى الكمال الممكن له..

لقــد علمت من قــراءتي لكلماتــك المقدســة الحاويــة لحقائق الوجود أنك ـ يا رب ـ مـا خلقت الكـون لـتزج بـه في الظلمـات، وإنمـا خلقتـه لتخرجـه من الظلمـات.. ابتـداء من ظلمات العدم، وانتهاء بظلمات الضلالة..

لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تشـير إلى ذلـك: {هُـوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43]

ولـذلك أرسـلت رسـلك، وأنـزلت كلماتـك عليهم لتـؤدي دورهـا في تربيـة خلقـك، وتعـريفهم بـك، حـتى يخرجـوا من ظلمات الأوهام إلى نور الحقائق..

لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تشـير إلى ذلـك: {هُـوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحديد: 9]

يا رب.. ولم تكتف ربانيتك لخلقك بذلك.. بل جعلت لهم من السمع والأبصـار والعقـول وكـل أدوات الإدراك مـا يمكن أن يكـون نبراسـا يـدلهم على الحقـائق، ويعينهم على السـير في سبيلها..

لقـد قلت تشـير إلى ذلـك: {وَاللَّهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78]

فلذلك يسـتحيل على من يُعمـل مداركـه، أو يخلي بينهـا وبين أداء وظائفهـا، أن يجهلـك، أو يجهـل القيم الـتي أمـرت عبادك بأن يختاروها، ليترقوا من خلال اختيارهم لها.

ولم تكتف ربانيتك بذلك.. بـل إنـك يـا رب.. وضـعت في فِطر خلقك ما يـدلهم على الحـق، ويجعلهم يشـعرون بـه من غير حاجة لبراهين أو أدلـة.. وكيـف يحتـاجون إلى ذلـك، وهم قد سمعوا نداءك لهم، وأنت تعرفهم بنفسك..

لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تشـير إلى ذلـك: {وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف: 172]

ولم تكتف ربانيتك بذلك.. بل إنك نصبت الدلائل في كـل شـيء.. ووضـعت الأعلام الهاديـة إليـك وإلى حقـائق الوجـود وقيمه النبيلة في كل محل.. حتى يخرج الخلـق بملء إرادتهم من ظلمات أهوائهم إلى أنوارك.. وحـتى يقومـوا هم بتصـفيد شياطينهم، بعد أن يختاروك أنت.. ويختاروا معك عالم الأنوار التي لا تنطفئ أبدا.

يـا رب.. وقـد كـان من مقتضـيات ربوبيتـك لعبـادك أن جعلت لهم دار للجـزاء.. لينـال كـل واحـد منهم جـزاءه الـذي اختـاره لنفسـه في دار التكليـف.. وكنت رحيمـا بهم، عـادلا معهم، فلم تـنزل في دار كرامتـك إلا من كـان أهلا لهـا.. ولم تنزل في دار تأديبك إلا من رفض الالتزام بقيمـك الـتي بـنيت عليها الكون، وأسست عليها الحياة.

يا رب.. وأنت في كل ذلك لا تزال رب العالمين.. تـرقي

أهل الجنة، وتربيهم، لتخرج منهم كل ما يصرفهم عنك، ولو كان من نعيم الجنة.. وتربي أهل الجحيم، وتريهم فساد اختياراتهم، حتى يكون ذلك سببا في خروجهم من الظلمات إلى النور.. فإن خرجوا منها استحقوا رحمتك، كما استحقها المؤمنون أول مرة.

ولذلك كانت الحياة كلها.. أولاها وأخراها.. مدرسة تربوية تشرف عليها.. ليترقى الخلائق إلى العوالم المقدسة التي هيأتها لهم.. ليسعدوا باللقاء الأجمل.. والمعرفة الأعظم.. والمشاعر التي لا يمكن وصفها.

يا رب.. فاختر لنا من الطرق أقصرها.. ومن المعارج أقربها.. حتى نصل إليك من غير المرور بتلك المعاناة التي يمر بها الجاحدون المقصرون الذين استسلموا لعقولهم وأهوائهم، ولم يستسلموا لك، ولا لرسلك، ولا لكلماتك المقدسة.

يا رب.. وطهرني من رؤية نفسي، فأنت تعلم أنها حجابي الأعظم الذي يحول بيني وبينك.. فاجعلني أقطعها، لأصل إليك من غير معاناة.. ولتصبح نفسي تلك الراضية المرضية.. المسالمة المطمئنة.. التي لا تختار مع اختيارك، ولا ترضى بغير ما يرضيك.

يا رب.. اجعل نفسي كنفس إبراهيم الذي سلم لوحيك.. وكنفس إسماعيل الذي سلم رقبته من أجلك..

يا رب.. واجعلني كذلك التلميذ المطواع لأستاذه، لا يجادله، ولا يماريه، ولا يرتاب في توجيهه وتعليمه.. حتى أكون من المتخرجين المتفوقين في مدرستك.. والذين لا ينالون جوائز فضلك فقط.. وإنما ينالون معها جوائز رضوانك وتقريبك ومحبتك، وهي أغلى الجوائز وأسناها وأرفعها.

يا رب العالمين.. فاهدنا إليك، ودلنا عليك، ويسر على نفسي التخلي عن أهوائها في سبيلك، حتى تصير حياتي ومماتي كلها لك.. وحتى أترقى في مدارج الكمال التي هيأت لها أنبياءك وأولياءك والصالحين من عبادك.. فأنعمت عليهم بكل ألوان فضلك.. فألحقني بهم، واجعلني معهم، وربني ورقني في مدرستهم، حتى أحظى بقبولك ولقائك وقربك.

# السميع البصير

إلهي.. أيها السميع البصير.. المدرك لكل المدركات.. ما كثف منها، وما لطف.. وما قرب منها، وما بعد.. وما انفتح منها وما انغلق.. فلا يغيب عنك شيء في الأرض ولا في السماء.. ولا في الملك، ولا في الملكوت.. ولا في الغيب، ولا في الشهادة.. بل كل شيء عندك شهادة.. وكل غيب عندك حضور.

إلهي.. إنك ما ذكرت لنا في كلماتك المقدسة السمع والبصر لتحصر قدراتك فيهما، فأنت أعظم من أن تنحصر مداركك فيما تنحصر فيه مدارك خلقك.. فأنت الذي تدرك كل شيء، ومن كل الوجوه، وبكل المعاني.

وأنت الذي لا تحتاج للأعضاء التي يحتاجها خلقك حتى يتحقق لهم الإدراك، فإدراكك بلا آلة.. وكيف تحتاج للآلة، وأنت الذي خلقتها، وخلقت كل شيء؟.. وكيف تحتاج إليها، وأنت الغني بذاتك عن غيرك؟.. وكيف تحتاج إليها، وأنت القدوس الذي تقدس عن كل الوسائط؟

وأنت يا رب.. تدرك كل شيء كما هو على حقيقته.. لا كما تفعل بنا مداركنا البسيطة التي تتأثر بضعفنا وعجزنا، فترى الأشياء بحسبها لا بحسب حقيقتها.

فلك الكمال يا رب في سمعك وبصرك، وما لا نعلمه من صفات إدراكك.. ولك القدوسية والتنزيه والتسبيح فيها.. فأنت الأكبر الأعظم الذي تنزه عن كل نقص، وتحلى بكل كمال.

يا رب.. فانظر إلينا بعين لطفك.. واستجب لدعواتنا بسمع كرمك.. حتى لا نفتقر إلى غيرك.. وكيف نفتقر إلى غيرك، وأنت ترى فقرنا، وتسمع تضرعنا.

يا رب.. واجعلنا كأوليائك الذين شغلوا بنظرك إليهم عن نظر الخلق.. فامتلأوا فرحا وسعادة ليقينهم برؤيتك لهم، وعلمهم بحضورك الدائم معهم.

يا رب.. واجعلنا من المخلَصين الصادقين الذين يشعرون برؤيتك لهم.. حتى لا نمزج مع رؤيتك رؤية غيرك،

فنقع في الضلالة والشرك.. وهل يمكن لمن يعلم برؤية ربه له أن يبحث عن رؤية غيره.

يا رب.. واجعلنا من المستحين من رؤيتك لنا، فنتأدب أمامك، ولا نبيح لأنفسنا أن تترك الأدب وهي في حضرتك.. وتحت سمعك وبصرك.. وهما لا يغيبان عنا في كل الأحوال.

يا رب.. فطهرنا لنحظى برؤية الرضا، ونسعد بمشاهدتك لنا، ونحن نتقلب في رياض طاعتك، متنعمين برؤيتك لنا، ونحن نجثو بين يديك، ننهل من كرمك وفضلك وعبوديتك.

يا رب.. لقد قلت في كلمات المقدسة تخبرنا عنك: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [التوبة: 105]، فنسألك يا رب أن توفقنا لأن نكون في أحسن الأحوال حتى لا نقع في الفضيحة أمامك وأمام أنبيائك وأوليائك.. فلا معصوم إلا من عصمته.. ولا مخلَص إلا من خلصته.

يا رب.. لقد ذكرت في كلماتك المقدسة أنك ذرأت { لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا } [الأعراف: 179]

فنعوذ بك من أن يصيب العته قلوبنا، أو العمى أبصارنا، أو الصمم آذاننا، فلا ندرك الحقائق التي بثثتها في كونك، ونكون حينها { كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف: 179]

يا رب.. فاملأ أبصارنا بنور البصيرة حتى تطغى بصائرنا على أبصارنا، فنرى الملكوت في الملك.. ونرى الباطن في الظاهر.. ونرى اللطافة في الكثافة.. ونراك في كل شيء، فلا تغيب عنا في أي شيء.

يا رب.. واجعل سمعنا لك.. حتى لا نسمع شيئا إلا لنهتدي به إليك، ويكون حادينا إلى روضات أنسك.

يا رب.. وأسمعنا ما أسمعته أهلك وأولياءك الذين شغفوا بذلك النداء الذي لا يزال يرن في آذان قلوبهم عندما قلت مخاطبا لخلقك: { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } [الأعراف: 172]

يا رب.. واجعلنا نهتز طربا لسماع ذلك النداء المقدس الممتلئ بكل أنواع الجمال.. حتى نعيش في عالم الطرب والسرور الذي لا يغني عنه كل طرب الدنيا وسرورها.

يا رب.. واجعل كل شيء حادينا إليك.. حتى نسير إليك بأبصارنا وأسماعنا وكل مداركنا.. لنشكرك بها.. فلا شكر للنعمة أعظم من استعمالها للسير إليك.

يا رب.. ونعوذ بك أن تحجبنا بأبصارنا وأسماعنا.. فنلتفت لغيرك، ونقع في تلك الهوة السحيقة التي وقع فيها من عبد هواه.. وراح يسمع لغيرك، ويكتفي بالنظر لسواك، فصار ممن { ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 104]

يا رب.. فطهر أسماعنا وأبصارنا ومداركنا، واجعلها سلما يصلنا بك، وحبلا ممدودا منا إليك.. أو منك إلينا.. حتى لا نكون ضحايا لأهوائنا، وفرائس لشهواتنا.

يا رب.. واحفظ سمعنا وبصرنا وقوتنا أبدا ما أبقيتنا، واجعلها الوارث منا.. حتى نلقاك بها كما وضعتها فينا.. فقد أخبرتنا رسلك أنك ستحاسبنا عنها، وأن السعيد من حافظ عليها، وعلى فطرتها، ولم يدنسها بأنواع الرجس والأذى.

يا رب.. وكما تقدست مداركك عن الآلات.. فقدس مداركنا حتى يحصل لنا ما حصل للعارفين بك، أولئك الذين صارت قلوبهم كلها عيونا، كما عبر عنهم الشاعر بقوله:

قلوب العارفين لها عيون... ترى مالا يري للناظرين
و ألسنة بأسرار تناجي... تغيب عن الكرام الكاتبين
و أجنحة تطير بغير ريش... إلى ملكوت رب العالمينا
و ترتع في رياض القدس طرا... وتشرب من بحار العارفين

# الآمر الناهي

إلهي.. أيها الآمر الناهي الذي كلم عباده من غير حروف ولا أصــوات.. ولا أدوات أو آلات.. ليبلغهم حقــائق الوجــود.. ويعرفهم بنفسه وبأنفسهم.. ويدلهم عليه وعليهم.. نصحا لهم وشفقة بهم، حتى يرتقوا من ذلك العالم البسيط الذي ولــدوا عليه إلى عوالم الكمال المعدة لهم.

يا رب.. قد تأملت في كلماتك المقدسة التي تأمرنا فيها وتنهانـا.. وتوصـينا فيهـا وتعظنـا.. فـرأيت من جميـل لطفـك، وحسن بيانك، وفضل رحمتك مـا زادني لـك تعظيمـا، وزادني على شريعتك حرصا.

فأنت لم تأمرنا إلا بما يصلحنا، ويرفعنا، ويقدس أرواحنـا لتصبح أهلا لمنازل السعادة التي وفرتها لنا.

وأنت لم تنهنا يـا رب لتحرمنـا من بعض المتـاع الزائـل، وإنما نهيتنا لتربينا وتؤدبنا وتصلح نفوسـنا، لتصـبح لائقـة بـدار الطيبين، تلك الدار التي لا يدخلها من في نفسه ذرة خبث.

يا رب.. لقد قـارنت بين كلماتـك المقدسـة الـتي تأمرنـا فيهـا وتنهانـا بكـل مـا قالتـه البشـرية فلاسـفتها وحكماؤهـا ومفكروهـا وسياسـيوها.. فوجـدت الكـل يـراعي في أوامـره ونواهيــه حاجــات دون حاجــات.. ومطــالب دون مطــالب.. فيصلح أشياء، ويفسد أخرى.. ورأيت أوامرك ونواهيك وحدها من يصلح كل شيء، ولكل شيء.. ولكـل الأزمـان والبيئـات.. ولكل الأحوال والأشخاص.

وكيـف لا تكـون كـذلك.. وأنت الـرب الخبـير بعبـاده .. العليم بمــا ينفعهم ومــا يضــرهم.. وقــد قلت في كلماتــك المقدسـة تحـدثنا عنـك: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14]

يـا رب .. فأسـألك أن أقـف عنـد أوامـرك ونواهيـك.. لا أتجاوزهــا.. ولا أعمــل عقلي أو هــواي معهــا.. وهــل يمكن للممتلئ جهلا وغفلة أن يعقب على الذي لا حـدود لعلمـه، ولا نهاية لخبرته؟

يـا رب .. وأسـألك أن أؤدي مـا أمرتـني بأدائـه.. وأنتهي عما نهيتني عنـه.. وأنـا في غايـة الرضـا والسـرور، لأني أنفـذ

أوامـــرك أنت.. وهـــل يمكن لأحـــد أن يـــرغب عن أوامـــر محبوبه؟.. وهل يمكن لأحد أن يقترب مما يكره محبوبه؟

يا رب .. وأسألك أن أؤدي أوامرك بكـل كيـاني.. بقلـبي وجـوارحي.. حـتى لا أكـون من الـذين يعطونـك ظـاهرهم، ويعطوا لأهوائهم بواطنهم..

يـا رب .. وأسـألك أن توفقـني لـتراني حيث أمـرت.. وتفقدني حيث نهيت.

يا رب .. وأسألك أن تجعلـني من الـدعاة إلى شـريعتك، والحريصـين عليهـا.. وأعـوذ بـك من أن أكـون من المتهـربين منها، أو المنفرين من الخضوع لها.

يا رب.. وأعوذ بك أن أكون كأولئك الذين استحوذ عليهم الشـيطان، وزين لهم أعمـالهم، فراحـوا يُعملـون عقـولهم المدنسة بدنس الأهواء، فيرفضون من شريعتك ما لا يتناسب مع أمزجتهم، ويقبلون منهـا مـا يتناسـب معهـا، أولئـك الـذين وصفتهم بقولك: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَـرْفٍ فَـإِنْ أَصَـابَهُ خَيْـرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [الحج: 11]

وأعوذ بك يا رب من أن أكون من أولئك الـذين يقـدمون بين يـديك وبين يـدي رسـولك، أولئـك الـذين نهيتنـا أن نكـون مثلهم، فقلت: {يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تُقَـدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات: 1]

وأعوذ بك يا رب من أن أكون من أولئك الـذين يصـيبهم الحرج لأوامرك أو أوامـر رسـولك، فيتسـللون هـاربين منهـا، متلاعبين بها.. أولئـك الـذين وصـفتهم فقلت: { قَـدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْـذَرِ الَّذِينَ يُخَـالِفُونَ عَنْ أَمْـرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63]

وأعوذ بـك يـا رب أن أجعـل لنفسـي الحـق في الخـيرة أمام أوامرك ونواهيك.. وكيـف أفعـل ذلـك، وقـد حـذرتنا في كلماتك المقدسة من أن نشرك بك نفوسنا وأهواءنـا، فقلت: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَقَـدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب: 36]

يا رب .. واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك.. حتى أهتدي إلى أوامرك ونواهيك.. كما هي .. وكما أنزلتها على رسلك.. وقبل أن تغير عليها جحافل المبدلين والمغيرين..

وإن وقع يا رب أي خطأ مني في تنفيذ أوامرك أو الانتهاء عن نواهيك، فاغفر لي تقصيري وتفريطي، واهدني إلى التقوى، حتى لا أحوم حول حدودك، أو أتجاوز قدري بتجاوزها.

يا رب.. واجعلني أنفذ أوامرك كما ينفذها المحبون لك.. لا كما ينفذها الخائفون أو الطامعون.. فإني وإن طمعت في فضلك، فهو أعظم من أن يكون سببه أنا أو أعمالي.. بل سببه أنت وكرمك.

فأنى لأعمالي، ولو كثرت أن تستجلب لي فضلك.. وأنا لم أعملها إلا بفضلك.. ولولا توفيقك وهدايتك لما عملت شيئا.

يا رب.. فاجعل أوامرك ونواهيك لي أداة لسلوك سراطك المستقيم خلف أنبيائك وأوليائك الذين اصطفيتهم بكلماتك المقدسة، وجعلتهم منارات لهدايتك، وحجبت كل من تمرد عليهم، أو أراد أن يصل من غير أن يسلك سبيلهم.

# المحيي المميت

إلهي.. أيها المحيي المميت..

لقد رحت أتأمل في معنى هذين الاسمين العظيمين من أسمائك، وسر ذكرك لهما في كلماتك المقدسة، فامتلأت بكل مشاعر الهيبة والتعظيم والإجلال والمحبة لك.. وانمحت من قلبي كل مشاعر الخوف والوجل والرهبة من غيرك..

فأنت وحدك يا رب من يملك زمام الموت والحياة.. وأنت وحدك من يدبر أمرهما، ويصرفهما كيف شاء.. فلذلك لا خوف إلا منك، ولا رجاء إلا لك، ولا طمع إلا فيك.

لقد تأملت في قول عبدك الصالح إبراهيم للملك الجبار المستكبر عندما سأله عنك، يطلب تعريفا لك، فقال له: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} (البقرة: 258)، وقد كانت إجابة كافية شافية.. ومن كل الوجوه.. ذلك أننا عندما ننظر إلى المستكبرين وتربص الموت بهم نعلم أنهم لا يساوون أمام جلالك شيئا.. وكيف يساوون شيئا، وهم تحت رحمة اسمك المحيي المميت الذي لا يمكنهم الفكاك منه.. فحياتهم مثل موتهم بيدك وحدك.

ولذلك لا يصح الخوف منهم، ولا الثقة فيهم، ولا التوكل عليهم.. فمن قهره الموت أضعف من أن يكون سندا لغيره.. ولذلك قلت يا رب في كلماتك المقدسة تدعونا إلى التوكل عليك وحدك، لأنك وحدك الحي الذي لا يموت: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ } [الفرقان: 58]

ولذلك قال عبدك الصالح إبراهيم مخاطبا أولئك الذين آذوه وظلموه محدثا لهم عنك: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} (الشعراء:81)

ولذلك قال أولئك الصادقون الذين خرجوا من عبودية فرعون إلى عبوديتك: {اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [طه: 72]، لعلمهم أن الموت لن يقضي عليهم.. وكيف يقضي عليهم، وأنت المحيي الذي يحيي الموتى؟

يا رب .. لقد تأملت في مسيرة الخلق وبحثهم عن الحياة الدائمة.. فوجدت أن أكثر بحوثهم فيها، وأكثر

اهتمامهم لهـا.. فبسـببها أو بسـبب فـترة قصـيرة من الحيـاة يضيفونها لأنفسهم بنـوا المستشـفيات والصـيدليات وأسسـوا المصانع والمدارس والجامعات.. لكنهم نسوا مع ذلك كله أن يرجعوا إليك، ليعرفوا أنك واهب الحياة.. وأن كـل مـا وفـروه لأنفسهم لن يحول بينهم وبين الموت الذي كتبته عليهم.

أنـا لا ألـومهم يـا رب على مـا قـدموه من بحـوث، أو أسسوه من مـدارس ومصـانع، فـذلك حسـنة من حسـناتهم، وأنت الذي خلقت الداء، وخلقت معه الدواء، وأمرتنا بـالبحث عنه.. لكني أتعجب من الغـافلين الـذين يتوهمـون أن حيـاتهم مرتبطة بالدواء.. وليست مرتبطة بـك.. ومرتبطـة بـالطبيب.. وليس برب الأطباء وملهمهم ومعلمهم.

والعجب الأكــبر منهم يــا رب في تــوهمهم أن الحيــاة مرتبطة بهذا القـالب الطيـني الـذي رُكب لهم لـيركبوه فـترة من الزمن، ثم يغادروه إلى غيره من المراكب.. وكـأن الـذي خلق الحياة، ووفرها في كل الأرجاء يعجز أن يركب قالبا آخر للحياة أكثر قوة وجمالا وصحة.

يـا رب .. فـاجعلني أسـتمد من اسـمك المحـيي لأعيش الحياة الحقيقية بكل معانيها.. لا حيـاة قـالبي الطيـني فقـط.. بل حياة روحي وعقلي وقلبي وكل اللطائف التي أودعتها في كياني.. فأنت صاحب كل أنـواع الحيـاة، وفي خزائنـك أجمـل صورها ومظاهرها.. ولا تعطيها إلا لمن طلبهـا منـك، أو كـانت له قابلية الظفر بها.

لقد قلت في كلماتك المقدسة تدعونا إلى ذلك: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: 24]

يا رب .. إن هذه الكلمات تشير إلى ذلك الموت العظيم الذي يقبع فيه من يتوهم أنه حي.. بينما لا ينبس بالحيـاة منـه إلا جسده وخلاياه وأنسـجته.. أمـا روحـه وعقلـه وقلبـه وكـل لطائفه الجميلة، فمدفونة في طينـه وحمئـه المسـنون الـذي استغنى بالنظر إليه عن كل شيء.

لذلك يا رب كـان كـل أولئـك الـذين يزعمـون لأنفسـهم الحياة بعيدا عنك ليسوا سوى قبور متحركـة.. لأنـه لم يظفـر بالحيـاة منهم إلا تلـك الخلايـا والأنسـجة الـتي لا تختلـف عن تراب الأرض وطينها.

وكيف يمكن أن يظفروا بالحياة الحقيقية، وهم بعيدون عنك، وعن الروح التي نفختها فيهم؟

وكيف يمكن أن يظفروا بالحياة الحقيقية، وهم بعيدون عن الاتصال بك، والتواصل معك.. وأنت روح الروح، وعقل العقل، وسر السر.. ومن كان بعيدا عنك كان مجرد وهم وخيال وسراب.

إلهي .. فارزقني الحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة.. تلك الحياة التي تمتد للطائفي جميعا.. فترى الأشياء كما خلقتها لا كما تبرزها الأوهام.. لأراها بعين لطفك، وأسمع حديثها بسمع كرمك.

يا رب.. وأسألك أن تميت فيَ كل ما يبعدني عنك.. أمت من نفسي أهواءها الأمارة بالسوء.. وأمت من عقلي كل الحجب التي تحول بينه وبين معرفة الحق والتسليم له.. وأمت من روحي كل ما ينزل بها إلى عالم السفل، ويحول بينها وبين الترقي إليك، ولقائك.

يا رب.. لقد جعلت الحياة من أعظم نعمك علينا.. فلولاها لم نسمع ولم نبصر ولم نعلم ولم نعرف.. ولولاها لجهلناك.. ولولاها لما قدرنا على الاتصال بك والتواصل معها.. فاحفظها لنا يا رب بكرمك.. وارزقنا من الحياة أكملها وأشرفها وألطفها وأجملها حتى نعيش بصحبتك وبصحبة جمالك المطلق، وكمالك المقدس.

ونعوذ بك يا رب أن نختصر الحياة في جوانبها الحسية، تلك التي لا تساوي شيئا أمام حياة الروح التي وفرتها لأوليائك والصادقين من عبادك.. فعاشوا الحياة الحقيقية الخالدة التي تبهت أمامها كل أنواع الحياة، وكل أصناف الأحياء.

يا رب.. وإن نقلتنا من هذه الدار بالموت الذي قدرته لنا.. فارزقنا بعدها تلك الحياة التي وصفتها في قولك: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 169 - 171]

ارزقنا يا رب موتة الشهداء، لنتشرف بأن نقدم أرواحنا

فداء لجمالك.. ولنظفر بعدها بتلك الجوائز السنية الـتي تـتيح لنا أن نعيش الحياة الحقيقية في رياض كرمك الـذي لا حـدود له.

وقاموا بالحروب ح

هـو الـذي يقـرر توحيـد اللـه، ونفي الوسـائط: {كَيْـفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتـاً فَأَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (البقرة:28)، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْأِنْسَانَ لَكَفُـورٌ} (الحج:66)، وقـال تعـــالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَـلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَـيْءٍ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ} (الـروم:40)، وقـال تعـالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِـكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَـمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الزمر:42)

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْـرَ فَسَـيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُـلْ أَفَلَا تَتَّقُـونَ} [يـونس: 31]

ولذلك عرف إبراهيم الله تعالى للملـك الطاغيـة بقولـه: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} (البقرة: 258)، وفي موقف آخـر، قـــال إبـــراهيم عليـــه الســـلام: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} (الشعراء:81)

وقال تعالى عن الثاني: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَـذَابَ الْحَرِيـقِ} (لأنفـال:50)، وقـال تعـالى: {وَلَـوْ تَـرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَـوْتِ وَالْمَلائِكَـةُ بَاسِـطُو أَيْـدِيهِمْ أَخْرِجُـوا أَنْفُسَـكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَـذَابَ الْهُـونِ بِمَـا كُنْتُمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ غَيْـرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُون} (الأنعام: 93)

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال: 24]

{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [الحج: 66]

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الروم: 40]

# الكلمات المقدسة

إلهي.. يا من كل شيء نابع من كلماتك المقدسة.. فكل شيء ثمرة لقولك كن.. فلا يكون إلا ما أمـرت بكينونتـه.. ولا يحدث إلا ما أمرت بإحداثه.

لقـد رحت أتأمـل في معـاني كلماتـك، فـرأيت أنهـا من أعظم نعمـك على عبـادك.. فلولاهـا لم يعرفـوك، ولولاهـا لم يهتـدوا إليـك، ولولاهـا لم يتمكنـوا من السـير إلى حضـرتك.. فبكلماتك دللتهم، وببيانك وضحت لهم معالم الطريق حـتى لا يقعوا في الضلالة، أو تأسرهم الأهواء.

لقد كانت كلماتـك يـا رب أعظم دليـل لنـا عليـك.. فبهـا عرفنـا رحمتـك ولطفـك وكرمـك.. وبهـا عرفنـا حقيقتنـا ومصيرنا.. وبها عرفنا ما ترضاه منا، وما لا ترضاه.. وما يقربنا منك، وما يبعدنا.. وما يزلفنا لديك وما يطردنا.

ولولاهـا يـا رب لعشـنا في غيـاهب الظلمـات والعمى.. نتناول النعمة من غير أن نعرف مصدرها.. ونعيش الحياة من غير أن نعرف حقيقتها ولا نهايتها.. فكلماتك هي الهـدى الـذي أنقـذنا من كـل ضـلالة، وهي النـور الـذي أطفـأ عنـا كـل الظلمات.

وكلماتك يا رب هي حبلك الممدود إلينا الـذي من تعلـق به نجا.. ومن نفر عنه هلك.

وكلماتك يا رب هي سـفينة النجـاة الـتي لا ينجـو إلا من ركبها صادقا مخلصا مذعنا لمن جعلته ربانها.

وكلماتـك يـا رب هي البلسـم الـذي يـداوي الجـروح، ويشفي ما في الصدور، ويرفع كل هم، ويزيل كل ألم.

كلماتك يا رب هي ربيع القلوب الذي لا تذبل أزهاره، ولا تنقطع ثماره، ولا تجف أرضه، ولا تصيب العلل نسيمه.

لقد عشـت يـا رب في رحـاب كلماتـك المقدسـة، وأرى تجلي جمالـك فيهـا.. وكـانت مرشـدي إليـك ولكـل حقـائق الوجود.. ولولاها لصرت مثل كل أولئك الـذين ضـلوا لأنهم لم يعرفوك، واكتفوا بنيـل الحقـائق من عقـولهم المدنسـة بـدل أخذها من كلماتك المقدسة.

يا رب.. لقد ترك بعضـهم الحقـائق المرتبطـة بكلامـك..

وراح يبحث في تفاصيلها بعقله.. ليحول من كلامك مادة للجدل والهذر والتكفير والتبديع.

لقد صور له هواه أن الكلام محصور فيما نستعمله نحن البشر من الوسائل.. وأن المتكلم يحتاج إلى شفتين ولسانا وأسنانا وهواء وموجات صوتية.. فراح يفرض عليك ذلك كله.. وهو لا يعلم أنك القدوس الذي تنزه عن الآلات.. والغني الذي لا يحتاج إلى الوسائط.. ولذلك تتكلم متى تشاء كيف تشاء.. بأي لسان تشاء..

ولو أن هؤلاء تواضعوا، وعلموا قدرهم، وأنهم أحقر من أن يخوضوا فيما لا يعرفونه، لتناولوا الثمرة دون أن يبحثوا في حقائقها.. فعقولهم أحقر من أن تصل إليها، وكيف تصل إليها، وهم لا يعرفون أدنى شيء يتعلق بأجسادهم وأعضائهم وحياتهم.. فكيف يريدون معرفة الحقائق التي لا يتطرق لها الخيال، ولا تدركها العقول، ولا تلمسها الأوهام.

إلهي .. فأعذني من ذلك الجدل.. أو من الخوض فيما لا أطيقه.. واجعلني أعيش كلماتك بكل قداستها ولطفها وسموها.. حتى أرحل إليك بها وأنا طاهر من التلوث بالأهواء والمراء والخصومة.

إلهي .. واجعلني أستمع إلى كلماتك المقدسة، ولا أكتفي فقط بقراءتها.. أستمع إليها من بحر الأزلية والأبدية.. لأعيش معانيها وحقائقها وأتذوق جمال ملقيها والمتكلم بها.. فما أعظم أن نسمع كلماتك منك.

إلهي وحدثني في سري بكل معاني قداستك.. فما أجمل أن يكون الحديث بيني وبينك.. وما أجمل أن تكون معلمي ومؤدبي وأستاذي.. وما أجمل أن أعيش معك في كل الشؤون.. فأنت يا إلهي تكلم من تشاء بما تشاء كيف تشاء.

وكيف تحرمني يا رب من كلماتك، وأنت الذي كلمت النحل، وهديتها إلى مراشد أمورها.. فكما كلمتها فكلمني، وكما هديتها، فاهدني، وكما علمتها فعلمني.

يا رب.. أنت تراني كل حين أتوجه إليك بالسؤال.. ثم أكف خواطر السوء عني لأستمع لكلماتك وإلهامك.. فكف عني كل ما يحول بينك وبيني.. وأعذني من الشيطان الذي يخلط إلهامه بإلهامك، وكلامه بكلامك.. إنك على كل شيء قدير.

# البارئ المصور

إلهي.. أيها البارئ المصور..

يا من خلق كل شيء وبرأه بمنتهى الدقة والإحكام.. ثم صوره كما يشاء، بحكمته ولطفه وإبداعه.

لقد رحت أتأمل في صور كل الكائنات، وأرى التفاوت بينها.. فامتلأت بالتعظيم لك، ولحكمتك، فأنت يا رب لا تعطي صور الأشياء إلا بناء على مقتضيات علمك ولطفك بخلقك، لتختبرهم وتربيهم وترقيهم وتسلك بهم سبل أهل السعادة التي ارتضيتها لهم.

لقد رأيت من الخلق من راح يشكو لك صورته الدميمة، ويود لو أنك أبدلتها له بصورة حسنة، ويذكر لك قدرتك على ذلك.. ولو أنك يا رب استجبت له، لوقع سجينا لصورته، ولما مد يده إليك يستغيثك، ويتوسل إليك..

ولو أنه يا رب .. راح يحسب سنوات الدنيا .. ويقارنها بعمر الأبد.. ويعلم أن صورته الحقيقة مخبأة في ذلك الزمن الممتد.. لاكتفى بفضلك الممتد عن ذلك الزمان القصير المحدود الذي اختبرته فيه بالدمامة ليرجع إليك، ويكون تمحيصا له ولخلقك.

ولو أنه يا رب .. نظر إلى روحه وما أودعت فيها من الجمال، لاستغنى بجمال روحه عن دمامة جسده.. وبجمال حقيقته عن دمامة رسمه.. فما ينفع الإنسان أن تكون حقيقته دميمة، وقالبه الطيني جميلا.

يا رب .. فاجعلني أنظر إلى جمال الحقائق.. حتى لا أحجب بصور القوالب التي وضعتها فيها لتكون اختبارا لخلقك.

يا رب.. لقد كان عبدك الصالح بلال أسود شديد السواد.. وكان المشركون يسخرون من سواده.. لكن قلبه الممتلئ بتوحيدك كان أعذب من الزهور، وأرق من النسيم، وأحلى من كل ألوان الحلاوة، وأجمل من كل ملوك الجمال..

وقد ذهب المشركون الذين رموه في الصحراء، ووضعوا على صدره الصخرة.. وذهب معهم إلى دارك

الأبدية.. وهم الآن لا يحلمون برؤية جماله الذي تبدى بعد أن كان مستورا، وظهر بعد أن كان خفيا..

أما جمالهم الذي كانوا يزدهون به، ويفخرون، فقد طغت عليه دمامة أرواحهم، وقذارة نفوسهم؛ فتحول إلى مستنقع آسن مملوء بكل ألوان الكدورة.

يا رب .. فاجعل الجمال الذي يهفوا إليه قلبي جمال بلال.. ذلك الجمال الذي لا نزال نراه في دينه وأخلاقه وسموه وروحانيته وتضحيته.. وهو الذي تجلى بعد ذلك في صورته الجميلة التي دخل بها عالم البرزخ، وسيدخل بها ما بعده من العوالم.

لقد ذكرت ذلك يا رب في كلماتك المقدسة، فقلت تعزي أولئك الذين رماهم الخلق بالدمامة، وضحكوا على صورهم، وسخروا منها، ولم يعلموا أنها اختبار لهم: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)} [عبس: 38 - 40]

وقلت في كلماتك المقدسة: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2)} [الغاشية: 1، 2]، وفي مقابلها: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9)} [الغاشية: 8 - 10]

وقلت تعزيهم، وتملأ قلوبهم بالأمل في الصور الجميلة التي تنسجم مع أرواحهم وطيبتهم وأخلاقهم: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: 106، 107]

يا رب لقد ذكرت في كلماتك المقدسة تحكمك في عالم الصور، فتهب من تشاء ما تشاء منها، إما تنعيما وتفضلا، أو تمحيصا واختبارا، فقلت: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } [الانفطار: 6 - 8]

وذكرت قدرتك المطلقة على ذلك، والتي تبدأ من عالم الأرحام، فقلت: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 6]

وذكرت قدرتك على تبديل الصور وتغييرها كيف تشاء، فقلت: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 6]

وذكرت أن كل ذلك من باب الاختبار لخلقك، حتى تميز الصادقين من الكاذبين، فقلت: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} [الإنسان: 28]

وكل ذلك يا رب .. ليعلم خلقك أن كل شيء بيدك.. وأن خزائن لطفك تحوي كل ما ترغب فيه نفوسهم.. ليرجعوا لك، ويعبدوك، ويتركوا الأهواء التي تعلقوا بها من دونك.

يا رب.. لقد شاءت حكمتك أن ترسل من يغير على الجمال فيحوله إلى دمامة.. ويغير على الأزهار، فتذبل.. وعلى النسيم العليل، فيتحول إلى أعاصير قاسية.. وعلى البحر اللطيف، فيتحول إلى أمواج عاتية.. ليعلم الخلق أن كل شيء بيدك..

وليتعلموا إلا يسكنوا لغيرك.. فالأشياء بيدك، وأنت الذي تصرفها كيف تشاء.

يا رب .. وأعوذ بك أن أكون كذلك الذي قيل فيه: (رب وجه صبيح، ولسان فصيح، غدا بين أطباق النار يصيح)، فكم من عبادك من غرتهم صورهم، فراحوا يعبدونها، ويتفننون في تزيينها إلى أن وجدوا أنفسهم خالين من كل فضيلة، ممتلئين بكل رذيلة.

يا رب.. فاملأ قلبي بحب الجمال الحقيقي الذي هو جمالك.. وهب بصري من الصفاء حتى لا تغره صور القوالب، ولا تجذبه تقاسيمها، ولا تفنيه عن نفسه ملامحها.. بل اجعلني أرى ببصيرتي عالم الروح، لأميز بين الجمال الحقيقي الذي هو هبتك، والجمال الشكلي الذي هو اختبارك.. إنك أنت أرحم الراحمين.

# المغني المستغني

إلهي .. أيها الغني المغني المستغني..

ما أجمل هـذه الأسـماء، ومـا أعظمهـا.. ولـو أن الخلـق التفتوا إليها، واكتفـوا بهـا لاسـتغنوا عن كـل شـيء إلا عنـك.. ولفرطوا في كل شيء إلا فيك..

فأنت ـ يا رب ـ الغني الذي يملك كـل شـيء من الملـك والملكوت.. والدنيا والآخرة.. والحس والمعنى.. فلا شـيء إلا وهو ملكك ابتـداء وانتهـاء.. وكـل أغنيـاء الـدنيا الـذين فرحـوا بغناهم لا يملكون قطرة من محيطات أملاكـك الواسـعة.. ولا جوهرة من خزائنك المملوءة بكل أصناف الجواهر.. بـل إنـك تملكهم وما يملكون..

وأنت ـ يا رب ـ مع غناك الواسع كـريم جـواد يمكنـك أن تغـني من التجـأ إليـك عن غـيرك.. فـإن احتـاج صـحة، فـأنت الطبيب.. وإن احتاج رزقا، فـأنت الـرزاق.. وإن احتـاج علمـا، فأنت المعلم.. وإن احتاج سعادة، فأنت المسعد.. وإن احتـاج هدايـة فـأنت الهـادي.. وإن احتـاج العمـر الطويـل، فـأنت المحـيي.. وإن احتـاج أن ينتصـف ممن ظلمـه، فـأنت الـولي النصير..

وهكذا لا توجد حاجة من حاجات الدنيا والآخرة إلا ولديك مفـاتيح خزائنهـا، ويكفي من يطلبهـا منـك أن يلتجئ إليـك، ويسـتغيث بـك، ويقـدم طلبـه لـك.. من غـير أن يسـتأذن في ذلك، ولا أن يقف في طـابور المنتظـرين، ولا أن يـذل نفسـه لخلقك.. بل يكفي أن يرفع يديه، ويقـول: يـا رب.. لتقـول لـه بفضلك وكرمك: لبيك عبدي.

وأنت ـ يا رب ـ المستغني عن خلقك .. تعطيهم من غير أن تطلب منهم.. وإن طلبت منهم لم تطلب منهم لنفسـك، وإنمـا تطلب منهم لهم.. فـأنت لا تريـد لهم إلا السـعادة والرضى والراحـة والطمأنينـة.. فلـذلك إن أمـرتهم أو نهيتهم كان ذلك لحرصك عليهم، وحبك لهم، ونظرك في مصالحهم.

يا رب.. يا غني .. ويا مغني .. ويا مسـتغني.. اغنـني بـك عمن سواك، حتى لا أكون فقـيرا إلا لـك.. فـالفقر لـك عـزة، ومد اليد لك كرامة، والاستغاثة بـك نبـل، والرجـوع إليـك في

كل حين، ولكل مطلب إنابة.

يـا رب.. أنت تعلم حاجـاتي من الـدنيا والآخـرة.. ومن شـؤون الحس والمعـنى.. ومما يرتبـط بي، أو بمن ربطتهم بي.. فأغننا بك عمن سواك.. واجعلنا ننظر إلى الطافك، ومـا ادخرتـه لنـا في خـزائن فضـلك حـتى لا نُحجب بخـزائن المترفين، وحتى لا نقول مـا قالـه أولئـك الجهلـة عنـدما رأوا خزائن قارون: { يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَـارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: 79]

بَل اجعلنا نقول ما قاله {الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِـلَ صَـالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَـا إِلَّا الصَّـابِرُونَ } [القصص: 80]

يا رب.. اجعلنا نشعر بغنانا لارتباطنا بغناك حتى لا نحزن على ما فاتنا من الدنيا، وكيف نحزن وخزائنك هي خزائننا مـا دمنا متصلين بك، متواصلين معك.. وما دمت معنا، ومـا دمنـا معك.. فما وجد من فقدك.. وما فقد من وجدك.

ولذلك نعوذ بك أن ننظر بدونية إلى أنفسنا أو ما ملّكتنـا من شؤون الـدنيا.. فهي مجـرد دنيـا.. ونحن فيهـا في سـفر.. والمسـافر لا يحتـاج لنقـل كـل أملاكـه معـه.. ونحن في امتحان .. والممتحَن لا يحتاج أن يشغل نفسه بغير مـا امتحن فيه.

لذلك كان تقديرك لأرزاقنـا كرمـا منـك، وفضـلا عظيمـا، حتى لا نُحجب برؤيته والانشغال به عنك، وعما كلفتنا به ممـا يرفعنا، ويسمو بأرواحنا.

يا رب.. اجعلنا نتناول ما رزقتنا من فضل غناك بكـل مـا آتيتنـا من لطـائف.. فلا نأكـل الطعـام بأفواهنـا فقـط.. وإنمـا نشعر به قبل ذلك بأرواحنا وعقولنا وقلوبنـا، فنحمـدك عليـه، ونشعر بفضلك علينا بسببه، حتى لا يكون ذلك الطعام مجـرد زاد لخلايا أجسادنا، بل يكـون كـذلك زادا للطائفنـا وقلوبنـا .. يقربنا منك، ولا يبعدنا.. ويدخلنا عليك، ولا يحجبنا.

يا رب.. وما آتيتنـا من شـؤون الـدنيا.. فبـارك لنـا فيـه.. حتى لا نتثاقل بسببه إلى أهوائنا، وحتى لا تصيبنا الغفلة الـتي تبعدنا عنك.. لنقع حينها في الفقـر الحقيقي الـذي يقطـع عنـا مدد فضلك، وسوابغ نعمك.

يا رب .. وأنت المغـني الـذي لا تقـف دونـه حاجـة اغننـا

بكل ما يقتضيه فقرنا من رزق.. فارزق أجسادنا الصحة والعافية.. وارزق نفوسنا الطهارة والصفاء.. وارزق قلوبنا حبك والأنس بك والشوق إليك.. وارزق أرواحنا السمو والرفعة لترقى في معارج السير إليك، ولا تتوقف بها الطريق دونك.

وارزق ـ يا رب ـ أوقاتنا البركة.. حتى تكون كل لياليا وأيامنا مثل ليلة القدر المباركة التي هي خير من ألف شهر.

وأحلل بكل مكان نحل به البركة، حتى نغنم بغنائم برك وفضلك.. وحتى يتحقق فينا ما ذكرته عن عبدك الصالح المسيح عندما قال في مهده: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} [مريم: 31]

يا رب.. اجعلنا نكتفي بغناك وكرمك عن سواك حتى تتحقق فينا العبودية، وحتى نفر من الشرك.. فمن رأى غيرك معك أشرك بك.. ومن رأى لغيرك تصريفا معك وقع في الضلالة، وتشتت قلبه.

يا رب.. واجعل قلوبنا وأرواحنا مع أنبيائك وأوليائك الذين أغنيتهم عن سواك.. ارزقنا محبتهم والولاء لهم ونصرتهم حتى يحل علينا ما أنزلته عليهم من برك وفضلك وبركتك، وحتى ننال على أيديهم ما لا يمكننا أن نصل إليه بأيدينا.

فاسقنا بأيديهم من برك وفضلك ما يجعلنا أغنياء بك عمن سواك، فقد قلت عن عبدك الصالح سليمان: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [ص: 39]، وقلت عن خاتم رسلك وأعظمهم، ذلك الذي قربته إليك، وجعلته واسطة فضلك على عبادك: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: 59]

يا رب .. فاسقنا بيد حبيبك محمد من شراب الآخرة ما لا نظمأ بعده أبدا.. واسقنا بيده الشريفة من شراب الدنيا ما لا نضل بعده أبدا.. وارزقنا أن نركب السفينة التي هو رُبانها .. حتى نصل إلى بر النجاة في صحبته وصحبة المصطفين من عبادك الذين ورثوا الهداية، وورثوا معها البيان والتبليغ.

فأغننا يا رب بما ورّثتهم من فضلك عن غيرهم، حتى لا

نحتاج لسواهم، وحتى يكون شـرابنا خالصـا صـافيا بعيـدا عن كل كدر.

يـا رب.. هـذا سـؤالي.. وأنت أغـنى الأغنيـاء.. وأكـرم الكرماء.. ولن يخيب من دعاك.. ولن يضل من التجأ إليك.

# المؤمن المهيمن

إلهي .. أيها المؤمن المهيمن..

يا من يؤمّن لعباده كل حاجاتهم.. ويؤمّنهم من جميع مخاوفهم.. ويهيمن على كل مقاليد أمورهم.. ويوفر لهم ما يحتاجون ابتداء وانتهاء، حتى لا يحتاجوا لغيره، ولا يضطروا لسواه.

خاب من لم يعرفك.. وخسر من لم يلجأ في كل أموره إليك.. فهو لن يجد عند غيرك إلا السراب.. ولن يرى في غيرك غير الوهم..

وكيف يكون لغيرك تصريف، ومفاتيح خزائن كل شيء بيدك؟.. وكيف يكون لغيرك معك تدبير، وأنت الحي القيوم الذي قامت به كل الأشياء.. فلا وجود لها من دون وجوده، ولا استمرار لها من دون مدده؟

يا رب.. لجأت إليك من مخاوفي فأمني.. وأبطل كل كيد يكيدني به من اختربتني بعدواتهم لي، واختبرتهم بموقفهم مني.. فحصني بحصنك، وأغثني بمددك.. فجنودك لا حدود لأعدادها، ولا لقدراتها، فأمددني بجندك، وأغثني بقوتك، حتى لا أكون ضعيفا، وأنت سندي، ولا مُهانا، وأنت عزتي، ولا مُخترقا، وأنت حصني، ولا عاجزا وأنت كهفي الذي لا ملجأ لي غيره.

يا رب.. لجأت إليك في جميع حاجاتي.. وأنت تعلمها.. ولا حاجة لي بذكر تفاصيلها.. وكيف أذكر لك ما أنت أعلم به مني.. فاقض لي حاجاتي من أمور الدنيا والآخرة.. والظاهر والباطن.. والروح والجسد.. والحس والمعنى.. والحاضر والمستقبل.. وكل شأن من شؤوني ما خفي عني وما ظهر.. وما بدا وما استتر.

يا رب.. يكفيني علمك بحالي عن توضيح ما أريده منك بسؤالي.. فكرمك أعظم من أن يحتاج إلى مقالي.. أو يرتبط بدعائي.. وفضلك أعظم من أن يتوقف على استغاثتي وتضرعي وتوسلي.. فابدأني بفضلك.. وألهمني أن أسألك حتى أتحقق بالعبودية لك.. ولو أني أعلم أن فضلك أعظم من أن يستدره سؤالي.. وكيف يكون له ذلك.. وسؤالي

فضل من فضلك، ولولا إلهامك لي ما سألتك، ولـولا تحريكـك للساني ما دعاك.

يا رب.. أنت المهيمن الذي لا يتصرف معه غـيره.. فكـل الشؤون لك.. وكل الأمور بيدك.. فأعوذ بك من أن أشرك بك غيرك.. أو أعتقد أن هناك من يهيمن على الأشياء سواك.

يا رب.. إني أعلم أنك ما وضعتنا في هذه الدار التي قـد يبـدو فيهـا لغـيرك بعض الملـك والسـلطان إلا لتمـيز بين من يبصر الحقائق، ومن يجهلها أو يتجاهلها.. ذلك الـذي لا يعـرف ملكك إلا بعـد أن يسـمع نـداءك في الخلائـق في ذلـك اليـوم العظيم: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]

أما الصادقون العارفون بـك، فهم يسـمعون نـداءك هـذا في كل حين.. وكيف لا يسمعونه، وكل شيء يدل عليه..

فذلك الملك أو ذلـك السـلطان أو ذلـك الـذي تـوهم أن مقاليـد الأمـور بيـده.. لا يملـك من نفسـه شـيئا.. فهـو تحت رحمة قوتك وقدرتك وقهرك.. وفاقد الشيء لا يعطيه.. فهـل يمكن لمن يكون سجينا لقدرة غيره أن يكون له القدرة على التسلط عليهم؟

لقـد أدرك ــ يـا رب ــ السـحرة ذلـك، عنـدما رأوا عصـا عبدك الصالح موسى، وهي تلتهم سحرهم، وكل تلـك العلـوم التي فرحوا بها.. لقد أدركـوا أنهم وفرعـون لا يسـاوون شـيئا أمامك.. ولذلك سجدوا لك، وسلموا لك، وتبرؤوا من فرعون، وصاحوا بكل قوة في وجهـه: {لَنْ نُـؤْثِرَكَ عَلَى مَـا جَاءَنَـا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَـا أَنْتَ قَـاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَـا أَكْرَهْتَنَـا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [طه: 72، 73]

لقد علموا أن تلك الهيمنـة الـتي كـانت لفرعـون هيمنـة مجازيــة محــدودة قاصــرة.. فهــو إن تمكن من أجســادهم، ليعـذبها، فلن يتمكن من قلـوبهم ليزحزحهـا عن الإيمـان، ولا من عقولهم، ليفرض عليها ما يريده من شرك.

يـا رب.. فـاجعلني أشـعر بمـا شـعروا.. وبمـا يشـعر بـه عبادك الصالحون الـذين لا يخـافون إلا منـك، لعلمهم أن كـل شيء إليك، وأنه لا تصريف لأحد معك..

اجعلني يا رب.. أرى كل التيجان والعـروش هاويـة أمـام عرشـك وملكـك وسـلطانك، حـتى لا أستسـلم لأهـوائهم، أو

أسـكن لإرضـائهم، أو أتكلم أو أتصـرف بمـا يقربـني منهم، ويبعدني عنك.

اجعلني يا رب .. أشعر بسلطانك الـدائم على الأشـياء.. وبهيمنتك المطلقـة عليهـا، حـتى لا أقـدم بيعـتي ولا ولائي إلا لـك، أو للمصـطفين من عبـادك الـذي أمرتـني بـالولاء لهم، ونصرتهم، والكينونة معهم.

يا رب.. أعوذ بك أن أكون كأولئك الذين خـافوا سـلطان الأرض، ونسـوا سـلطان السـماء.. بـل سـلطان الأرض والسـماء.. بـل سـلطان كـل شـيء.. فسـلّطتهم عليهم، فأذاقوهم كـل أنـواع البلاء.. فمن رضـي بغـيرك بـدلا عُـذب.. ومن بغي عنك متحَولا تـألم، وعـاش حياتـه كلهـا في سـجون أوهامه ومخاوفه.

يا رب .. فأمني بأمنـك.. وهيمن على مخـاوفي بقـدرتك حـتى لا يصـيبني مـا يؤذيـني.. وكيـف يصـيبني وأنت سـندي وموئلي.

إلهي.. واجعلـني من الـذين سـعوا إلى التشـبه بكـرم سماتك وجميل أوصـافك.. حـتى أكـون أمنـا وأمانـا لكـل من اتصل بي.. فلا يصيبه مـني إلا الخـير والبركـة.. والمـؤمن من أمنـه النـاس.. والمـؤمن من لم يصـب غـيره منـه إلا السـلام والخير والبركة.

واجعلـني يـا رب من المهيمـنين على أنفسـهم، حـتى لا تتسلط أهوائي على عقلي.. وحتى لا يتسـلط طبعي على مـا أمرته مني.. بل اجعل طبعي وفطـرتي منسـجمة مـع كرمـك وعدلك ورضاك ورحمتـك.. واجعـل عقلي أمـيرا على هـواي، حتى لا يقع في مسـتنقعات الضـلالة.. واجعـل روحي مهيمنـة على جسدي حتى تسمو لسموات فضلك وقربك ومعرفتـك.. يا أرحم الراحمين.. يا رب العالمين.

# مالك الملك

إلهي.. يا ملـك .. ويـا مالـك.. ويـا مليـك.. ويـا من بيـده الملك.. ويا من لا ملك لغيره، ولا مالكية لسواه.

إني كلما تأملت في أحوال هذه المملكة الواسعة.. ومـا خلفها من عوالم الملكوت.. وما خلفهمـا من العـوالم الخفيـة التي لا حظ لمداركي بإدراكهـا أو التعـرف عليهـا، أعـرف أنـه يستحيل أن يكون هنـاك نظـام من دون منظم.. ولا دقـة من دون مقدر.. ولا مملكة من دون مالك.

يا رب.. فكل شيء يدل على أنـك الملـك.. كمـا أن كـل شيء يدل على أنك المالك.. وأنك وحدك الذي يملـك الملـك والملكوت.. وأنك وحدك الذي يحق له أن يكـون ملكـا، فكـل من عداك قد يملك ما لاحظ لـه فيـه، ولا حـق لـه معـه.. أمـا أنت فكل شيء ملكك، ولا تحكم إلا في ملكك.

يـا رب .. يـا ملـك الملـوك.. يـا من كـل أملاك الـدنيا والآخـرة.. والغيب والشـهادة أملاكـه.. ومن عـداه لا يملـك حقيقة، وإنما يملك اسـتعارة.. ولا يملـك أعيانـا، وإنمـا يملـك انتفاعا.. ولا يملك ديمومة، وإنما يملك لفترة قصـيرة، وقصـد الاختبار.

يا رب.. فكل ملك عدا ملكك مجاز.. وكل مالكيـة خلاف مالكيتـك إعـارة.. فـأنت المتفـرد بالملـك والمالكيـة في كـل الأزمان والأحوال.

يا رب.. فاجعلني أطيعك في كل الشـؤون.. فـأنت ملـك على كـل الشـؤون.. ومن تصـور أن هنـاك من الشـؤون من ليس لك به علاقة، فقد أشرك بك، وتوهم أنك فوضـت الأمـر لخلقك، وتـركت التـدبير لهم.. مـع أن الأمـر أمـرك.. والحكم حكمك.. والتدبير تدبيرك.

يا رب .. فـأعوذ بـك أن أكـون كأولئـك الجـاهلين الـذين أعطـوك مـا بخس من أوقـاتهم وشـؤونهم.. وأعطـوا ملـوك الدنيا المحاربين لك، والمشركين بك، كل طاقاتهم، فعبـدوهم من دونــك، وفوضــوا لهم أمــور خلقــك.. مــع علمهم أنهم مناوئون لك، محاربون لأوليائك.

فأعوذ بك يا رب أن أقع في ذلك الشـرك.. فـأنت ملكي ومـالكي.. وأنت حـاكمي وإلهي.. وأنت الـذي أعبـده في كـل شـيء.. في الشـعائر الـتي أمـرني بالتزامهـا.. وفي حيـاتي الشخصـية والاجتماعيـة والاقتصـادية والسياسـية.. وفي كـل مواقفي.

أنت ملكي ومـالكي ومـدبر كـل شـؤوني.. وأنـا عبـدك الخاضـع الـذي يرجـع لكلماتـك المقدسـة.. ولأوليائـك الـذين فوضت إليهم بيانها، حتى أعرف ما الـذي علي فعلـه في كـل موقف من المواقف، أو اختبار من الاختبارات.

يا رب.. عز جنابك أن تترك عبادك لأهوائهم، وأن تكتفي توجيهاتك لهم في تلـك الشـعائر الـتي شـرعتها لهم.. بـل إن شرائعك تمتد لكل الحياة، وتفاصيلها.. فـأنت الـذي تحكم في كل شيء.. وقيمك الرفيعة التي أنزلتهـا علينـا في كتابـك هي التي تبين لنا ما علينا فعله، وتصـف لنـا بدقـة محـال رضـاك، حتى نكون عبيدا صالحين في مملكتك الواسعة.

يا رب.. فأعوذ بك أن أكون من المعارضـين لحكمـك، أو الواقفين في وجه قوانينك التي سـننتها لنـا، والـتي بينتهـا لنـا رسلك، وشرحها لنا أولياؤك.

واجعلـني يـا رب من أنصـارها ودعاتهـا والمنفـذين لهـا والحريصين عليها .. حتى ألقاك وأنا في حزبك الذي رضيت.. والذي جعلت له الغلبة.

يا رب .. لو أدرك عبادك الغافلون عنك المعارضـون لـك ما في شرائعك من المصـالح الـتي وفرتهـا لهم، لخجلـوا من أنفسهم، ولاكتفوا بـالعودة إليـك.. فهـل يمكن لمن أنشـأ كـل هذه العوالم أن يغفل عن مصلحة عبـاده، أو أن يـدعوهم إلى ما يضرهم؟

يا رب.. لقد كان جهلهم بك، وبعلمـك الواسـع، وخبرتـك العظيمة سبب تلك الجـرأة عليـك، حين توهمـوا أن شـرائعك خاصة بزمان دون زمان، أو مكان دون مكـان.. وكيـف ذلـك، وأنت رب المكان والزمان؟

يـا رب.. لقـد كـان من لطفـك بعبـادك أن أريتهم بعض جرائر معارضتهم لك.. حيث سقطوا في الحروب.. وانتكست إنسانيتهم وأخلاقهم.. ولو نفذوا شريعتك المملوءة بالسـلام.. وطبقـوا قوانينهـا المملـوءة بـالقيم الرفيعـة، لارتفعـوا

بإنسانيتهم، ولتحولت البشـرية إلى المدينـة الفاضـلة الـتي لا يعيش فيهـا إلا الصـادقون الصـالحون، أولئـك الـذين تتـنزل عليهم البركات من السماء والأرض.

يـا رب.. لقـد وضـعتنا في هـذه الـدنيا موضـع الاختبـار والامتحـان لنختـار بين أن تكـون أنت ملكنـا أو أولئـك الـذين اختبرتنـا بهم، واختـبرتهم بنـا.. فاجعلنـا نختـارك أنت.. فـأنت الملك، وما عداك عبيد.. وأنت الحاكم، ومن عداك رعية..

يا رب.. واجعلنا لا نخشـى غـيرك حـتى لـو سـلط علينـا سيوف قهره.. ولا نرجـو فضـل غـيرك حـتى لـو أمطـر علينـا سحائب كرمـه .. حـتى لا يكـون ذلـك حجابـا بيننـا وبين قـول كلمة الحق الـتي أمرتنـا بهـا.. أو مواقـف الحـق الـتي أمرتنـا بوقوفها.

يا رب.. أنت الذي تهب الملك لمن تشاء.. وتنزع الملـك ممن تشاء.. فاجعلنا ملوكا على أنفسنا.. حتى لا تتسلط علينا أهواؤنا.. واجعل أنبياءك وأولياءك ملوكا على عقولنـا وقلوبنـا وأرواحنا حتى تكون طاعتنا لهم مقربة لنـا منهم، ومزلفـة لنـا لديك.

يـا رب.. ونعـوذ بـك أن نخضـع لكـل ملـك يعارضـك.. أو نملك على قلوبنا من لا يقدسك أو يعرفك.. فكن أنت ملكنا.. واجعل عرشك في قلوبنا حتى نسمع نداء مالكيتـك وملكيتـك في كل الأحيان والأحوال.. وحتى لا يتسـلط الشـيطان علينـا، وكيف يتسلط الشيطان على من في قلبه عرشك؟

يا رب.. يا ملك .. ويا مالك .. هب لنا من ملكك ما تغنينا به عن سواك.. وهب لنا من حبك ما يجعلنا نشعر بأن كل مـا تملكـه ملـك لنـا.. فـالحب يختصـر المسـافة بين الحـبيب والمحبوب.. ويلغي المالكية بينهما.. يـا رب العـالمين، وأرحم الراحمين.

# الرقيب الشهيد

إلهي.. أيها الرقيب الشهيد.. الذي لا يغيب.. ولا يأفل.. ولا تطرأ عليه الغفلة ولا النسيان.. ولا تحول بينه وبين خلقه الحجب ولا الستور.. وكيف تحول بينه وبينها الحجب، وهو أعظم من أن يُحد أو يُحاط به.

يا رب.. شقي من لم يشهد شهودك ورقابتك وقربك.. وضل من رأى أنك بعيد عنه، أو أنك تحتاج إلى الوسائط لتراه أو تسمعه أو تلبي نداءه.

يا رب.. أنت أقرب إلينا منا.. وأنت أقرب إلى كل شيء منه.. وأنت أعلم بأسرارنا، وما نخفيه في أنفسنا..

أنت تدرك كل ذلك.. فلا يغيب عنك شيء في الأرض ولا في السماء.. ولا في ما نراه من الكون، ولا فيما لا نراه.. بل كل شيء أمامك كشيء واحد.. وأنت أقرب إلى الجميع.

والشقي من بعد عنك.. أو من تصور بعده عنك.. والسعيد من لاحظ قربك، فراعى الأدب معك.. وراح ينهل من فضلك، ويسعد بلقائك، وتطمئن نفسه بحضورك معه، وحضوره معك.

يا رب .. فاجعلني أشهدك في كل شيء حتى لا تغيب عني في شيء..

اجعلني أشهدك في صلاتي، فأخشع لك فيها.. وأعيش معاني كلماتك المقدسة التي علمتنا كيف نخاطبك بها.

واجعلني أشهدك في دعائي ومناجاتي.. حتى يكون دعائي لأجلك، لا لأجل مطالبي.. ومناجاتي لأجل التواصل معك، لا لأجل التوصل لأغراضي وحاجاتي.

واجعلني ـ يا رب ـ أشهدك في صيامي.. فأكف عن كل ما نهيتني عنه لأجلك.. حتى يكون صيامي لك.. وجزائي عليك.

واجعلني أشهد قربك وحضورك معي في كل شؤون حياتي، حتى أراعيك فيها جميعا، فلا تهم نفسي بما يبعدني عنك، ولا أقترب مما يحجبني عن أبواب فضلك وكرمك وقربك.

يا رب.. اجعل أسماءك الحسنى وصفاتك العليا بين

عيني في كل حين، حتى أرى الكـون جميعـا من خلال نظـري إليها، وحتى أفتح جميع الأبواب من خلال مفاتيحها.

يا رب.. أيها الـرقيب الحاضـر.. الشـاهد الـذي لا يغيب.. والشـهيد على كـل شـيء.. اجعـل حبـك في قلـبي، واملأ بـه كياني حتى تكـون شـهادتي لـك شـهادة المحـبين المتحـررين بعبـوديتهم، لا شـهادة الأرقـاء الخـائفين، أو شـهادة التجـار الطامعين.

يـا رب.. اجعلـني أسـتغني برؤيتـك لي عن كـل رؤيـة.. وبشـهودك لي عن كـل شـهادة.. وبحضـورك معي عن كـل أنيس.. حتى أعيش في رحاب حضرتك المقدسة مستغنيا بك عمن سواك، راضيا بك عمن دونك.

يـا رب.. أنـا عبـدك الضـعيف الـذليل الحقـير المسـكين المسـتكين.. فـاجعلني بشـهودي لـك، وحضـوري معـك، قويـا عزيزا كريما.. حتى ينالني من فضلك، ما يرفعني إلى درجات المقربين منك، أولئـك الـذين خلصـتهم من أنفسـهم، وحجبت عنهم شـياطينهم، فصـاروا عبـادك المخلصـين، الـذين يفـر الشيطان من ظلالهم، ويهرب من رؤيتهم.

يا رب.. فكما أنك حاضـر معي في كـل حين.. فـاجعلني حاضرا معـك في كـل حين.. واجعـل قلـبي منشـغلا برؤيتـك، مملـوءا بلـذة التواصـل معـك، حـتى لا تصـيبني الوحشـة، ولا يملـؤني الكـدر، ولا تسـيطر علي الغفلـة، ولا يسـتحوذ علي الشيطان.

يـا رب .. أنـا عبـدك الـذي ينتظـر فضـلك.. ويسـتمطر جودك.. ويرجو قربك.. فاجعلني من المقربين لك.. الممتلئين بحبك.. المشتاقين لجنابك.

واجعلني من أولئك الذين أسكنتهم في رياضك المقدسة في الدنيا قبل الآخرة، حتى أفد إليك، وأسعد بلقائك، وأنا في غاية الطهر والجمال، لأكون حقيقا بمنـابر النـور الـتي هيأتهـا لأوليائك الذين اكتفوا بك عمن سواك.. يا أرحم الراحمين.. يا رب العالمين.

# هذا الكتاب

تحاول هذه الرسائل الموجهة للحضـرة النورانيـة المقدسة أن تلغي كل الحجب والمسافات التي تربط بين العبـد وربـه.. لتصـل العبـد بربـه مباشـرة عـبر مناجاته والحـديث معـه وبثـه أشـواقه ومطالبـه، وفي جميع الشؤون.

وهي تختصر في مضامينها أكثر القضـايا العقديـة والعرفانية الواردة في المصـادر المقدسـة أو الـتراث الإسـلامي، وبصـياغة رقيقـة بعيـدة عن المصـطلحات الصعبة، أو الجدل، أو غيرها من الأساليب التي اضطر الفلاسفة أو المتكلمون إليها.

وهي تحـاول كـذلك أن تجـادل عن تلـك المعـاني السـامية، ولكن بطريقـة حسـنة بعيـدة عن الشـغب، والمراء الذي نهينا عنه.

فهي تخاطب العقل.. وتحاول أن تقنعه من خلال البـديهيات الـتي يسـلم لهـا.. ثم تنتقـل مباشـرة من العقل لتبث في القلب كل ألوان العواطف والمشاعر المرتبطة بتلك المعاني السامية.